

لم اليابانى

الإصلاح الياباني

الغلاف للفنان خلف طايع

د. غالى شكرى

الحلم اليابانى

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والإسكندرية

الطبعة الأولى ١٩٩٤

مقدمة

بعد شهور من فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل سألنى الدكتور ممدوح البلتاجى رئيس الهيئة العامة للاستعلامات (وزير السياحة الآن) عما إذا كنت أرغب فى زيارة اليابان ، ذلك أن الهيئة ستقيم أسبوعاً ثقافياً هناك بالاشتراك مع جامعة واسيدا حول نجيب محفوظ والثقافة المصرية . وقد وقع الاختيار علىّ باعتبارى صاحب أول كتاب عن نجيب محفوظ (المنتمى - الطبعة الأولى ١٩٦٤) لأكون المتحدث المصرى فى هذا الاسبوع الثقافى .

ولم أتردد شاكراً فى قبول الدعوة . وكان الموعد الأولى فى يوليو ١٩٨٩ ثم جرى تعديل طفيف بسبب موسم العواصف فأصبح الموعد هو الثامن من سبتمبر ، والعودة فى الثامن عشر من الشهر نفسه .

وبالرغم من أننى كنت ملمّاً بعض الالمام بالتاريخ السياسى والثقافى لليابان ، خاصة فى العصر الحديث ، إلاّ أننى رحت أتزود من مكتبتى

ومكتبات الأصدقاء بما يمكن أن يكون قد فاتني وبما يمكن أن ينعش ذاكرتي . والتقيت مراراً في منزلي بالبروفيسور يوشيمورا من جامعة واسيدا في محاورات مكثفة حول الجامعة العريقة التي يهتم أحد أقسامها اهتماماً خاصاً بالحضارة المصرية .

وقد أخبرني صديقي الدكتور جابر عصفور أن لنا صديقاً وزميلاً يعمل في جامعة أوساكا هو الدكتور نصر حامد أبو زيد ، وهو الذي يستطيع أن يجدد معرفتي باليابان على الطبيعة ، فقد أمضى في هذه البلاد حوالي أربع سنوات. أما أنا فقد كانت الزيارة الأولى ، ولأيام معدودة . غير أنني فوجئت بمن يخبرني قبيل السفر مباشرة بأن نصر أبوزيد قد عاد من اليابان إلى أرض الوطن . وعوضني الحظ بأن صديقي الدكتور عبد المنعم تليّمة الذي كان في اليابان من قبل قد عاد اليها مجدداً في جامعة أوساكا ذاتها . وقد أسعدني النبأ حين وصلت بأن صديقي الدكتور أنور عبد الملك الذي عرف اليابان مبكراً وقام بفتح آفاقها أمام عيون المثقفين العرب المعاصرين يقوم بالاشراف على موسم دراسي في جامعة كيوتو . وكان النبأ صحيحاً ، ولكن ضيق الوقت لم يمنحني فرصة اللقاء بأنور عبد الملك .

وقد أتيح لي أن القي محاضرتي عن أدب نجيب محفوظ في طوكيو وأوساكا ، وان أجتمع بالشباب الياباني حول الثقافة المصرية ثلاث مرات كذلك زرت المعاقل الثقافية والاعلامية اليابانية في خمس مدن،

ودخلت البيت الياباني للمواطن العادي وتعرفت على الأسرة اليابانية عن قرب . وزرت المعابد والمسارح والمعارض التشكيلية. وخضت غمار مناقشات خصبة مع السياسيين من كافة الاتجاهات ورجال الأعمال وأساتذة الجامعات . كل ذلك خلال عشرة أيام واصلت فيها الليل بالنهار، أثمر تجربة انسانية عميقة تعلمت منها الكثير .

وهذا الكتاب الصغير هو بعض ثمار التجربة التى قد تختلف عن الآراء الشائعة حول «الحلم الياباني»، ولكن الاطلاع عليها قد يفيد الذين يحلمون بغد أفضل لبلادهم .

ويهمنى أن أتقدم بالشكر العميق لكل من أتاح فرصة التعرف على أوجه التجربة اليابانية المختلفة ، وخاصة الدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة الحالى والبرفيسور يوشيمورا من جامعة واسيدا والسفير المصرى فى طوكيو حينذاك وهيب المنياوى والمستشار الاعلامى شاكر سعيد ومرافقتى من جامعة واسيدا تاكا هاشى يومى والطالب المصرى السيد عبد الجواد والاستاذ والمفكر الصديق عبد المنعم تليّمه .. فلولا مساعدتهم وتوجيهاتهم ومبادراتهم ، لما استطعت فى زمن قياسى أن أعود من هذه الرحلة وقد اغتنت ثقافتى فى أيام قليلة بزاد لم يتوافر لى قبلها .

غالى شكرى

الفصـل الأول

«الحلـم» اليـابانـى

(أ)

سواء كنت تعيش فى الغرب الأوربى أو فى أحد أقطار ما يسمى بالعالم الثالث ، فانك سوف تلمس أو تشعر بأن هناك حلماً جماعياً عند عامة الناس وبعض المثقفين يمكن أن ندعوه الحلم اليابانى . يصفون هذا الحلم أحياناً بأنه «المعجزة» ، وأحياناً أخرى بأنه «الاسطورة» بمعنى انه الأمر الذى تحقق وكان فى حكم المستحيل .

أما الأوروبى - وليس الغربى حتى أستثنى الولايات المتحدة - فانه يعرف أن فرنسا أو بريطانيا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية متخنة الجراح ، ولكنها سرعان ما استعادت أنفاسها بالانتاج المكثف فواصلت تقدمها التكنولوچى والاقتصادى حتى بلغت ما بلغته من تقدم نحو الصف الأول من المشهد الانسانى المعاصر . ولكن هذا الأوروبى يستدرك قائلاً : أما اليابان فأمرها مختلف ، لأنها خرجت من جحيم ذرى وهزيمة منكرة ، ولأن ظروفها الطبيعية لا تمدّها بموارد أولية ذات بال . بقع ضيقة

متناثرة من الأرض ذات التاريخ الطويل فى الزلازل ، تستظل برقعة من السماء ذات التاريخ المستمر فى الأعاصير .. ونسبة عالية من الخصوبة البشرية التى لا تعرف الهجرة. ودائرة محكمة من الأعداء الطبيعيين أو التقليديين والاحتلال الأمريكى لسنوات بعد الحرب وتقليم الأظافر العسكرية لامد بعيد ومستقبل غير منظور . ومع ذلك ، فان هذا البلد قد استطاع خلال اربعين عاماً - بعد هزيمة عاتية - أن يعيد بناء نفسه مادياً وتكنولوچياً واقتصادياً على نحو تفوقت فيه اليابان تفوقاً مزعجاً للولايات المتحدة ، وتنوقاً غازياً لأسواق العالم . ومعنى ذلك أن اليابان تمكنت من استيراد المواد الأولية اللازمة لمختلف الصناعات الثقيلة والخفيفة والوسيطة . وقد تحولت ، وفقاً لانتاجها الصناعى وشبكتها التجارية الخارجية ، إلى «دولة عظمى» بكل المقاييس . اين يكمن السبب ؟ هل هو العقل اليابانى ؟ هل هو اليد العاملة ؟ هل هو التربية التاريخية ؟ هل هو روح التحدى ؟

ومن هذه الاسئلة وأمثالها يتشكل «الحلم اليابانى» فى الضمير الأوروبى. وهى اسئلة تصل أحياناً فى استقامتها القصوى إلى حدّ القول بأن «المعجزة اليابانية» لا تعليل لها بلغة الأرقام والماديات ، وانما هى «لغز» سيظل مرتبطاً بتكوينها الاسطورى . لغز فى النفسية اليابانية ذاتها ، فى الانسان اليابانى نفسه .

هكذا يبدو الحلم اليابانى فى المخيّلة الأوروبية المتقدمة . ونلاحظ أنه

فى الأغلب حلم انتاجى ، صناعى وتجارى . وليس حلماً فكرياً أو اجتماعياً . أى أن الحلم الأوروبى باليابان لا ينسج خيوطه من نظام ثقافى يحكم هذا البلد ، أو من نظام اجتماعى ينسج علاقاته فى الداخل والخارج . إنه حلم الوفرة فى الانتاج دون خامات أولية فى الأرض المحلية.

* * *

أما حلم العالم الثالث باليابان فلا ينطلق من هذه النقطة المادية المحسوسة ، بل من أحاسيس ضبابية غائمة حول «الشرق» . فى البدايات الأولى لهذا القرن كتب مصطفى كامل عن «الشمس المشرقة» من اليابان . وبوحى من هذا الكتاب قام فتحى رضوان بتشكيل «رابطة الطلبة الشرقيين» فى الجامعة إبان الثلاثينيات . وظلّت الهند واليابان والصين خيالاً شرقياً فى أدمغة أجيال بعد أجيال . وبينما كان الاستقلال الهندى على أثر المقاومة السلبية ، وكانت المسيرة الصينية الطويلة نحو الاشتراكية ، هى التى تُحرك الخيال «الشرقى» فى العالم الثالث ، فقد كانت التجربة اليابانية قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، شديدة الغموض والجاذبية والسحر فى وقت واحد ، دون أسباب واضحة محددة . ولم ينتبه أصحاب الخيال الشرقى إلى أن الاستقلال الهندى قد ارتبط أساساً بالديموقراطية الليبرالية ، وان الاشتراكية الصينية قد ارتبطت أساساً بالماركسية . وان الليبرالية والماركسية من ثمرات الفكر الغربى .

كل ما هناك أن الوطنية الهندية والوطنية الصينية قد تفاعلت من موقعها المستقل مع هذا الفكر أو ذاك . لذلك كان ممكناً للصين الاشتراكية أن تختلف مع الاتحاد السوفياتي ، وكان ممكناً للهند الديموقراطية أن تختلف أحياناً مع الولايات المتحدة . ولذلك ، ليس هناك «شرق» هكذا يكتسب مدلولاً حضارياً وأيديولوجياً حسب موقعه الجغرافي . وهو الأمر الذى ينطبق على اليابان . ولكن حلم العالم الثالث باليابان قد تأسس على هذا الافتراض : أن دولة شرقية قد استطاعت أن تقفز إلى الصف الأول من المشهد الانسانى المعاصر بسبب انتمائها الحضارى والجغرافى إلى هذا الشرق . ولا ندرى سبباً محدّداً لهذا الافتراض سوى أن جزءاً كبيراً من العالم الثالث ينتمى إلى الشرق ، وان بقية العالم الثالث تنتمى إلى الجنوب ، وأن الخيال الأيديولوجى - حسب الميزان الاقتصادى - يضم الشرق والجنوب فى صف واحد يواجه الغرب والشمال . هكذا تصبح اليابان «جزءاً منّا» ، هو الجزء الأغنى «لأنه شرقى أكثر مناً» . أى أن الحلم اليابانى عند أبناء الدول النامية يختلف عنه لدى الأوروبيين ، بأنه ليس سؤالاً أو أسئلة ، وانما هو جواب ، ويقين بأنه الانتماء إلى الشرق . والجغرافيا فى واقع الأمر رمز أيديولوجى إلى «حضارة الروح» فى مقابل ما يسميه البعض بالحضارة المادية المقترنة جغرافيًا أيضاً بالغرب . ولا يسأل أصحاب هذا الحلم اليابانى أنفسهم لماذا لم تتحقق المعجزة أو الأسطورة فى بلاد شرقية

أخرى غير اليابان ، ولماذا تحققت المعجزة ذاتها على نحو مختلف في بلد غربي كألمانيا ؟ ولكن أصحاب الحلم اليابانى من أبناء الدول الفقيرة والمتخلفة لا يجيدون أحياناً لغة السؤال ، وهم يفضلون فى أغلب الأحيان لغة الجواب ، اليقينى ، القاطع .

ولكننا فى الحالين - سواء أكان الحلم اليابانى أوروبياً أو شرقياً - فإننا نجد أنفسنا أمام معضلة فكرية وواقعية .. ذلك أن التجربة اليابانية المعاصرة قد لا تكون نموذجاً يحتذى، ولكنها بالتأكيد تجربة ملهمة . وهى التجربة التى لا يفيد معها السؤال الغربى المنشغل فقط بأجوبة الكمبيوتر ، ولا يفيد معها الجواب الشرقى المنشغل فقط بتهويمات الخيال والأوهام الأيديولوجية للجغرافيا.

وعندما وصلت إلى طوكيو كان يعنينى البحث عن الحقيقة اليابانية، لا عن الحلم .

(٣)

لن تستطيع فى رحلة استغرقت عشرة أيام أن تلم بأطراف «الحقيقة اليابانية» ، ولكنك تستطيع خلال الجولات المكثفة فى بعض أهم مدن اليابان - طوكيو وأوساكا ونارا وكيوتو وهيروشيما - أن تكتشف أن البلد الذى نحلم به هنا أو هناك لا يحلم ، وأن أهله الذين نحلم بهم على هذا النحو أو ذاك لا يحلمون . الحلم اليابانى يخصّ غير اليابانيين ، أما اليابانيون أنفسهم فانهم لا يعرفون الحلم . لقد أخرجتهم أرفع درجات التكنولوچيا - وهى القنبلة الذرية - من عزلة الفتوحات العسكرية إلى رحابة الفتوحات السلمية : التجارة الدولية . وتغيرت «العقيدة» السياسية اليابانية مرة واحدة وللأبد - كما يقولون - من الايمان المطلق بالحرب لدرجة الفاشية ، إلى الايمان المطلق بالسّلم لدرجة الانتماء الكامل للديموقراطية الغربية . ولم يحدث هذا التحوّل نتيجة حلم ، وانما ثمرة

قنبلة . لم تحلم العسكرية اليابانية ، بل كانت أشواك القنفذ وقد امتدت - حماية للعزلة عن العالم بغير فقدان لمقومات الحياة - إلى الخارج فتفرض هيمنة الاحتلال المباشر للصين وروسيا وكوريا وماليزيا واندونيسيا ، إلى جميع الجيران الأقربين والأبعدين . ولم تنكسر أشواك القنفذ لأنه كان يحلم بالسلام ، بل لأنه فى الثامنة صباحاً والعشر دقائق فى السادس من أغسطس ١٩٤٥ ، سقطت صاعقة على هيروشيما لم يعرفها تاريخ اليابان الحافل بالزلازل والأعاصير . وكان ذلك التوقيت فاصلاً نهائياً بين مرحلتين فى التاريخ والعقل والقلب اليابانى : ما قبل الحرب العالمية الثانية وما بعدها . وهو فاصل من صنع «الآخر» ، ولم يكن قط حلماً فى الضمير اليابانى . ولأنه اضطرار وليس اختياراً ، فإن الأمر قد تحوّل إلى عقدة خفية فى الشخصية اليابانية . ليس السلام مشروعاً بل «قضاء وقدراً» . وهو الدرس اليومى للذاكرة فى مختلف شؤون الحياة اليومية والأدبية والفكرية . وبدءاً من نظام الزواج إلى نظام التعليم إلى أنظمة الصناعة والتجارة ، فإن «السلام الأبدى» هو القانون الذى يحكم سلوك اليابانى دون أن يجرؤ على السؤال السرّى : لماذا ؟

فى الزواج ليس هناك ما يشبه المأذون أو الكاهن ، وانما هناك «صانع السلام» كما يسمونه Peace-maker وهو الذى يشحن ذاكرة العروسين بالغاية النهائية للحياة الزوجية : السلام . وهى الكلمة المطبوعة على الهدايا والتذكارات الشخصية ، والبرامج الاعلامية والتعليمية

والتثقيفية . وهى «حياة اليابان» كما يقول المثقفون : لسنا نبتغى السلام لأنفسنا فقط ، وإنما للعالم كله ، فأى اضطراب فى أى مكان فى العالم هو تهديد للسلام اليابانى . والمقصود أن اليابان التى تعتمد صناعتها على استيراد جميع المواد الأولية ، تعتمد فى تجارتها على تصدير كل شئ إلى جميع أنحاء العالم . وبما أنها لا تملك سوى الاقتصاد ، بعد تقليم أظافرها العسكرية والسياسية ، فإن السلام الذى يحمى تجارتها الخارجية هو قضية حياة أو موت . تماماً كما كانت فتوحاتها العسكرية القديمة . ولكن تلك الفتوحات كان لها ما يبررها فى التكوين التاريخى والجغرافى والسياسى اليابانى ، أما السلام فقد كان مبرره الوحيد هو الهزيمة أمام أعلى درجات التقدم التكنولوجى العسكرى. وتدل الكتابات الأدبية ذاتها قبل الحرب وأثناءها أن الأدباء أو غالبيتهم لم يكن لديهم أي «حلم» بالسلام . كان «النصر» هو اليقين ، بمعنى الاستمرار فى الحرب . ليس هناك فى الفكر اليابانى الحديث سوى إشكالية بناء الدولة العصرية . منذ منتصف القرن الماضى ، وهذه الاطروحة هى الفكر اليابانى . ولكن الوسيلة أو الوسائل التى تبنى هذه الدولة ، فانها لم تخطر على بال الثقافة اليابانية انها «مشروع يتصل بالمبادئ» .

السلام كالحرب اذن ليس حلماً . إنه انجاز قيد التحقيق . لكنه ليس مبدأ ولا اختياراً . لعله الوسيلة الوحيدة للبقاء والتوسع . هذا الفكر

البراجماتى - العملى الذرائعى - هو أساس العلاقة التى يبنيها اليابانى مع الزمان والمكان والعالم . ليست اليابان بهذا المفهوم بلداً شرقياً . إنها تنتمى إلى ثلاثة عناصر ، يكتسب كلٌ منها حجمة ومشروعيته ، حسب دوره في بناء «السلام» . هذه العناصر هي: الشرق والغرب واليابان ذاتها كعنصر مستقل .

أما الشرق فى اليابان فهو «الماضى» الوافد من الحضارة الصينية . انه الديانات الثلاث الأساسية : الشنتو والكونفوشيوسية والبوذية . اما المسيحية فإنها لم تربح أكثر من مليون يابانى على وجه التقريب، أى أقل من واحد فى المائة بالنسبة لعدد السكان . ومعنى هذا أن الأفكار الدينية الرئيسية القادمة من الصين (حتى البوذية ، لم تأت من الهند، هى الينبوع الأول لشرقية اليابان . كذلك الصين كانت مصدر النظام الادارى الذى حكم اليابان حتى أواسط القرن الماضى . بالإضافة إلى بعض التفاعلات الاجتماعية بحكم الاحتكاك المسلح أو التجارى مع جنوب شرق آسيا . ولكن هذا «الشرق» الصينى - الأسيوى لم يبق منه سوى المعابد الجميلة والاحترام لتعاليم بوذا وبعض العادات الاجتماعية . ولا تأثير لذلك كله فى الحياة الواقعية العملية للمواطن اليابانى ، فالأديان لا تتدخل فى السياسة أو الاقتصاد أو التعليم ، على أى نحو من الأنحاء. ولا يشعر المثقف اليابانى أو السياسى اليابانى بأى احتياج نظرى للتوفيق بين ما نسميه نحن بالتراث والعصر أو التقليد والتجديد

أو السلفية والحداثة . ان جميع الأديان بالنسبة له تعاليم أخلاقية يحترمها أشدّ الاحترام ، ولكنه لا يرى أية ضرورة ولا يفكر أصلاً فى الربط بين تلك التعاليم وأفكار العصر الحديث . وهو أيضاً لا يحتاج إلى ذكرى الأنظمة الادارية الصينية ، فقد أقدم على تغيير هذه الأنظمة منذ أكثر من قرن ، وبعد تجربة محمد على فى مصر بنصف قرن . تجربة تأسيس دولة حديثة . كذلك فإن الصين ذاتها غيرت أنظمتها منذ أربعين عاماً . وبالتالى فان اليابان الشرقية هى مجموعة تعاليم وبعض العادات، لا أكثر ولا أقل . ولا يخطر على العقل اليابانى أن يدبر اطروحة توفق بين تلك التعاليم والحداثة الوافدة من الغرب ، لأنه لا يفهم مغزى المحاولة أو ضرورتها ولا يتصور عقلياً هذه الثنائية .. فليس من ازدواجية قائمة بين التعاليم الأخلاقية الموروثة من الشرق وبين الحضارة الحديثة .

وهى الحضارة الغربية دون لف يابانى أو دوران شرقى . ويقول لك المفكرون والمثقفون اليابانيون ببساطة : إذا كان السلام هو وسيلتنا الوحيدة للابقاء على اتصالنا بالعالم ، فإن هذا السلام يشترط تلقائياً قبولنا دون مساومة للنظام السياسى الديموقراطى (الليبرالية الاقتصادية والسياسية والثقافية) ، وقبولنا لنتائج العلم والتكنولوچيا . ونحن لا ننسى أننا انتقلنا من ضفّة إلى أخرى بسبب التكولوچيا .

فى ظل القبول غير المشروط بقواعد السلام كوسيلة «بقاء وتوسع»

كان لابد من القبول غير المشروط بالحداثة الغربية . هكذا أصبح العنصر الحداثى الغربى فى تكوين اليابان هو العنصر الحاسم ، فى نظام الحكم ومؤسسات المجتمع . وأضحت اليابان جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الحديثة وواحدة بين الدول الصناعية الأكثر تطوراً فى العالم . وخلال أربعين عاماً فقط تمكنت من اللحاق الاقتصادى بمن أوقعوا بها الهزيمة ، وفى العديد من القطاعات تفوقت على الجميع .

بالطبع تبقى هناك الآثار المادية والنفسية للهزيمة بدءاً من احتجاب الوجه العسكرى ووقف النمو السياسى ، وانتهاء بالربط الذى لا ينفصم بين مستقبل الغرب ومستقبل اليابان .

هنا نصل إلى العنصر الثالث فى تكوين اليابان المعاصرة - بعد العنصر الشرقى والعنصر الغربى - وهو العنصر اليابانى . الشعب اليابانى نفسه . إن عراقة التجربة الحضارية والخبرات الشديدة الثراء والتنوع والتحديات التى تبدأ من الرقعة الضيقة الخالية من الموارد ولا تنتهى عند إرهاب الطبيعة ومفاجآتها المروعة قد أكسبت هذه كلها وغيرها اليابانيين مجموعة من الخصائص الجوهرية التى ساهمت فى تشكيل التجربة اليابانية الحديثة والمعاصرة . أول هذه الخصائص أن اليابانيين شعب منتج غير مستهلك . الفرنسيون والانجليز والألمان والأمريكيون شعوب منتجة ومستهلكة . وفى بعض الدول النامية طبقات سائدة مستهلكة وغير منتجة. أما اليابان فشعبها ينتج السيارة

والتليفزيون ولعب الأطفال وآلات التصوير وكل أدوات الرفاهية ، ولكنه في المأكل والملبس والسكن شعب متواضع يحيا كأنه صاحب دخل أقل من المتوسط.ومع ذلك فهو يعمل بنشاط وكفاءه للدرجة القصوى . والخصيصة الثانية انه شعب «وطنى» مرتبط بالأرض ، لا يعرف هجرة الأشخاص ولا هجرة الأموال ، فعدد مليارات اليّن التى يحتفظ بها اليابانيون فى الخارج صفر . والفرد اليابانى ، ثالثاً ، يحقق ذاته فى اطار الجماعة : الأسرة ، المدرسة ، المصنع ، المكتب ، الحزب . اليابانى لا يرى نفسه يابانياً ، بل هو اليابان . والخصيصة الرابعة هى الاستسلام للحياة والاستخفاف بالموت .

بهذه الخصائص تعامل اليابانيون مع شرقيتهم وغربيتهم باعتبارهم أمة ، والعالم هو «كل الآخرين» .

(٣)

قبل أن أذهب إلى اليابان قال لى صديقى الذى سبقنى فى زيارتها ، وهو من المعجبين بالاقتصاد الحر : لم أر هناك سوى العبودية . ليس ما يجرى فى العلاقات بين الناس نظاماً ليبرالياً . إنه نوع جديد من العبودية . وهى السرّ فى الانتاج الوفير. وحين عدت قال صديقى الذى لم يزر اليابان ، وهو من المعجبين بالاقتصاد الاشتراكى : لا تنبهر ، انها تجربة رأسمالية بشعة يصل فيها استغلال الطبقة العاملة إلى الحدود القصوى . وهذا الاستغلال هو السرّ فى الانتاج الوفير .

ولعلىّ أستأذن كلا الصديقين فى اننى - رغم قصر مدة الزيارة - إلاّ اننى فيما رأيت وسمعت لم ألمس العبودية التى يتحدثان عنها من موقعين مختلفين ، وانما لمست نموذجاً أخلاقياً فريداً سواء أكان هذا التفرد سلبياً أو إيجابياً . هذا النموذج هو ثمرة الصراع بين تحديات

الطبيعة والفتوحات العسكرية والنظام الاقطاعى القديم من جانب ، وبين الخصائص التى ورثتها واكتسبتها الشخصية اليابانية على مرّ الزمن .

فاليابانيون ليسوا فقراء أو بخلاء أو مهملون أو عبيد حين ينتجون ولا يستهلكون ، وانما الزهد خصيصة يابانية قديمة فى مواجهة الدمار المتصل والمفاجئ فى الوقت نفسه ، وقد ذاقوا منه الأهوال قبل مئات السنين وربما آلاف السنين حتى عام ١٩٢٣ حين وقع زلزال طوكيو . ومازالت الأعاصير تقتلع الحياة من الأحياء والجمادات والنبات بين حين وآخر . لذلك كان «الاستسلام للحياة» قبولاً مطلقاً بشروطها فى وقت واحد مع «الاستخفاف بالموت» الذى أمسى ضيفاً مستمراً . لذلك أيضاً تولد الزهد من صميم العلاقة بين الحياة والموت فى المجتمع اليابانى .

ولم تأت الأديان - أو التعاليم الأخلاقية بتعبير أدق - الاّ استجابة لهذا التكوين الاخلاقى الأصلى ، أى أن كونفوشيوس ومنشيوس وبوذا (والمسيح عند الأقلية) قاموا بتشريع وتكريس الأخلاقيات القائمة بالفعل ، والتى كان يُعدّ الخروج عليها «عاراً ما بعده عار» . وبالرغم من أن الأديان الرئيسية قادمة من الصين إلاّ أنها تجنّست باليابانية واضحت تعاليم وطنية . إن علاقة اليابانى بأرض الزلازل والأعاصير والمفاجآت المتوحشة لمجموعة الجزر المتناثرة فى البحر كأنها خارج الكرة الأرضية ، هى علاقة سرمدية . ليست هناك جاليات يابانية خارج اليابان، وليس هناك لاجئون يابانيون من أى نوع خارج اليابان . ولا

يتخيّل الياباني ، مجرد التخيّل ، انه منفى أو مطرود من الفردوس . ووطنه هو الفردوس سواء أكان اقطاعياً أو عسكرياً فاشياً . لذلك فحالات الفساد موجودة كما هو الحال فى أى بلد ، ولكن ليس من بينها مثلاً تهريب الأموال إلى الخارج . الخارج كله غير يابانى . واليابانيون لا يعرفون الحياة ، مهما بلغت قسوتها ، فى غير اليابان .

ولا شك أن «الانفتاح على العالم» خلال السنوات الأربعين الماضية ، بعدطول عزلة ، قد اصطدم بكثير جداً من الثوابت الأخلاقية اليابانية . وهى أقوى الثوابت . إن الانتاج بغير استهلاك ، والوطنية المرهفة الاحساس ، لا تلائم العلاقات الدولية . ويضيف اليابانيون عاملاً آخر هو أن الفردية التى يزهو بها النظام الليبرالى لا تناسب طبيعتهم . الفرد اليابانى لا يشعر بالغرور ولا بالدونيّة حين يحقق ذاته فى الجماعة. ولذلك فالنظام الأبوى المأخوذ عن العصر الاقطاعى وما قبله ليس هو العبودية التى كانت قائمة فى ظل العسكرية ولا هو العبودية التى تجددت فى ظل الرأسمالية . وانما هى الطريقة اليابانية فى تحقيق الذات . اليابانى يبدع ويبتكر ويزدهر وينتج فى اطار الجماعة . وهى العائلة أولاً ، والدولة ثانياً . وبين الطرفين هناك الاختراعات والشركات والمصانع والزراعة ، وكل ما ينتمى إلى «المجتمع» .

الزهد والوطنية والجماعيّة والموقف من الحياة والموت خصائص الهنية اليابانية تُشكّل العمود الفقرى للنموذج الأخلاقى اليابانى . إذا أضفنا

اليه أن اليابانيين لا يتكلّفون حماية أنفسهم بعد الحرب العالمية الثانية ، فالأميركيون يقومون بهذه الحماية ، فاننا نستطيع أن نتخيل ما يدّخرونه طيلة العقود الأربعة الماضية من بند الدفاع الذى يستهلك موارد كبرى فى ميزانية الدول الأخرى . هذا الادخار وتلك الأخلاقيات هى التى أثمرت الانتاج الوفير لليابان .

ونحن لا ننسى بالطبع انها تجربة رأسمالية من الألف إلى الياء . ولكنها ليست فقط تجربة رأسمالية . لقد بدأ التحديث الحقيقى فى اليابان منذ أكثر من مائة وعشرين عاماً . وهو تحديث لم ينقطع مساره كما حدث لنا بعد إخضاع محمد على . التحديث اليابانى متصل . وبالتالى فليس صحيحاً أن اليابانيين شعب من المقلدين . إنها نكتة أمريكية سخيفة ذاعت خلال السنوات التالية للحرب حتى منتصف الستينات ، لإيهام العالم بأن «أمريكا هى الأصل». ولكن الصدامات المتتالية بين الصناعة اليابانية والصناعة الأمريكية والتنافس الشديد بينهما فى أسواق العالم وأسواق الولايات المتحدة ذاتها ، كشفت المستور . وهو أن اليابان تملك قاعدة صناعية للعلم ، وقاعدة علمية للصناعة . هذه القاعدة المركّبة هى التى ألهمت العقل اليابانى والخبرة اليابانية ابداعات لا تحصى فى مجال التكنولوجيا . فى اليابان تسعمائة جامعة للعلوم النظرية والتطبيقية ، وثلاثة آلاف معهد تقنى. وبدءاً من البيت والمدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية يتعلم التلاميذ «معنى»

التكنولوجيا وتطبيقات العلم . والمصانع تنتج «قطع» الراديو أو التليفزيون أو آلة التصوير ، بينما يقوم التلاميذ بتركيبها . والمصنع يدفع لهم . والمدرسة تضع علامات التفوق أو الاخفاق . وهكذا الأمر فى بقية مواد الدراسة ، من روضة الأطفال إلى الدكتوراه ، يرتبط العلم بالصناعة والبيئة والتنمية . وليس صحيحاً أن العائلة تتوارث المهنة . كان ذلك فى الماضى . وما يزال هناك - كما هو الحال عندنا - الابن الذى يتخرج كوالده من الطب أو الهندسة أو المحاماه ، أو الأسرة التى تعمل كلها فى مهنة واحدة ، ولكن ليست هذه هى القاعدة . وانما القاعدة هى اكتشاف المواهب فى سن مبكرة ، ومتابعة نموها من جانب العائلة والهيئات الاجتماعية والدولة . وهكذا فان اليابانيين يبدعون كغيرهم ، وهم رأسماليون كغيرهم ، ولكنهم ينفردون بالنموذج الأخلاقى الموروث والمكتسب مما يرتفع بانتاجهم إلى الحدود القصوى .

وهم يعانون معاناة صامتة من نقطتين : الأولى هى الصدام المكشوف بين استقلالهم المشروط من ناحية ومحاولات الاختراق الاعلامى والاجتماعى الأمريكى من ناحية أخرى . وهم يضربون الأمثلة : فلعبة البيسبول أصبحت هى اللعبة الشعبية الأولى ، وليست «السّومو» أى المصارعة بالرغم من أنها اللعبة الوطنية الشهيرة . ولقد رأيت الفتيات وهن يرتدين «يونيفورم» البحرية الأمريكية . كذلك الغناء والموسيقى . والجيل الجديد خصوصاً يرى دون أن يصرّح بذلك أن «الأمريكى» هو

المثل الأعلى . وبالطبع ، فهو يعتقد إلى الآن ، ان «اليابان أولاً» ، ولكن الولايات المتحدة بعدئذ هى أسوأ وأعظم ما فى العالم . إنها الأسوأ فقد هزمت اليابان ، والأقوى لأنها هى فقط التى استطاعت ذلك. ولأنها ساعدت اليابان بعد الحرب ، ولأنها الأفضل بين الآخرين . هكذا يقول لك الشبان والشابات الذين تقابلهم فى الجامعات أو عند أبواب المعابد التى يزورنها فى رحلات كأنها المتاحف . وهم يندهشون من فردية الأمريكيين ، ولا يفهمون «معنى» المرأة فى الغرب . ان المرأة والفردية من أكثر الألغاز الغربية غموضاً من المنظور الأخلاقى اليابانى . والأخلاق من هذا المنظور مبرر الوجود . والصدام والتفاعل اليومى مع الغرب لا يعنى مطلقاً أن اليابانى يشعر بالوجع فى الأصالة أو التخلف عن العصر ، فهو يدرك تمام الادراك أن العالم ليس هو الغرب ، وأن الغرب جزء جوهرى من العالم . ولكنه يدرك أكثر أن اليابان هى معجمه الأخلاقى ، وان هذا المعجم ليس مجموعة من المفردات والتعبيرات والعادات المجففة أو القيم والتقاليد المحنطة وانما هو «المرجع» الوحيد للسعادة والتعاسة ، فاليابانى لا يعرف الثواب والعقاب فى الآخرة ولا الحلال والحرام الدينيين ، وانما يعرف الخطأ والصواب فى الدنيا والقضاء والقدر فى الطبيعة .

(٤)

يُسعد اليابانيين كثيراً أن تتحدث اليهم باعتبارهم من أصحاب لحضارات القديمة . وهو بالطبع كلام مجازى ، لأن الحضارة القديمة فى راقع الأمر هى حضارة الصين . وهم أنفسهم يقولون ذلك دون أى حساس بالنقص الحضارى ، لأن جوهر شخصيتهم القومية هو استضافة عناصر الحضارة القومية من الخارج وصهرها فى بوتقة «أرض الشمس لمشرقة» أى اليابان «أرض الألهة» . كُلّ شئ يبدأ من هنا . من هذه لنقطة يبدأ الدين بمعناه اليابانى : تقديس الأرض .

وكما أن اليابانى يسعده أن تتكلم معه كصاحب حضارة قديمة ، كذلك المصرى فى اليابان يتذكر على الفور أن «الدولة الحديثة» قد بدأ تأسيسها فى مصر مع بداية القرن الماضى ، ويبدأ التساؤل سراً أو همساً: لماذا اذن كان التقدم اليابانى بهذه السرعة وهذا الحجم ؟ وهو التساؤل

الذى يغرى بالمقارنة .

لعل عنصر التشابه الأول بين مصر واليابان هو ان الحضارة المصرية تكونت - بعد نهاية الامبراطورية - من حضارات وافدة من الخارج : اليونان فالرومان فالمسيحية فالاسلام . وعنصر التشابه الثانى هو أن ما اصطلحنا على تسميته بالعصر الحديث قد اقترن بالعلاقة مع الغرب ، هنا وهناك ، فى بداية القرن التاسع عشر بالنسبة لمصر وفى منتصفه بالنسبة لليابان . وعنصر التشابه الثالث أن اليابان منيت بهزيمة ساحقة اختتمت الحرب العالمية الثانية ، كما أن مصر منيت بهزيمة ساحقة عام ١٩٦٧ .

بعد هذه المشابهات التقريبية السطحية ، هناك المفارقات والفوارق .

فى الأصل الأصيل نحن أبناء حضارة قديمة من صُلْبنا، هى الجذر البعيد الذى يتصل وينقطع على مدى العصور حتى انه يترك بصماته على هذا النحو أو ذاك فى بقية حلقات انتمائنا الحضارى . وهذا الأصل البعيد يغلب عليه الطابع الدينى ، كذلك ما تلاه من حضارات وافدة من الخارج فقد كانت حضارات دينية .

ليست هناك حضارة يابانية موغلة فى القدم ، وانما يمكن القول بأن محاولات التحضّر اليابانى حديثة العهد إلى حد كبير ، وبالكاد يعتبر القرن السادس الميلادى من العلامات الفارقة حيث بدأت التجارب الأولى لإقامة حكومة مركزية . وقد ارتبطت هذه البدايات بالحكم العسكرى

المباشر الذى تطور من مرحلة المشرفين المسلحين على الأراضى الزراعية إلى مرحلة «الشوجن» وهو اللقب الذى منحه الامبراطور لمن استطاع أن يوّحد البلاد ويخرج منتصراً . واعتمد هذا الشوجن على آلاف المسلحين. وفى عام ١٦٠٣ تولّت الحكم العسكرى أسرة توكو جاوا الشهيرة التى عزلت اليابان عن العالم قرنين ونصف القرن تكونت خلاله «الساموراى» - أى حملة السيوف - وهو تكوين اجتماعى لا يصل إلى حدود الطبقة، ولكنه عدة مراتب اجتماعية - ثقافية ذات طابع عسكرى . وهكذا كانت العسكرية هى الطابع الغالب على التركيب الحضارى اليابانى.

ولا يعنى ذلك أن الحضارة المصرية قد خلت من العسكرية أو ان الحضارة اليابانية خلت من التدين ، ولكنى أقصد أن الحضارة المصرية قد اشتملت على مؤسسة دينية وأحياناً كهنوتية وأحياناً شعبية وأخرى رسمية . أما اليابان فقد كانت المؤسسة الحاكمة فى جوهرها مؤسسة عسكرية أشاعت قيمها من الانضباط التراتبى إلى الالتزام بالأرض والامبراطور ، بواسطة السلاح ، فى مختلف التشكيلات الاجتماعية . وبينما تناوبت ظروف التدهور والانحطاط على الحضارة المصرية فلم تبق من طابعها الدينى الأ على التشكليات والقشور ، فان الحضارة اليابانية التى لم تعرف الاحتلال الاجنبى المباشر إلا مرة واحدة عام ٢٠٠ قبل الميلاد (هو الاحتلال الصينى) قد حافظت على جوهر تعاليم الشنتو وكونفوشيوس وبوذا . هذا الفرق الخطير يعكس فرقاً آخر هو أن مصر

تعرضت - على أثر هزيمة امبراطوريتها الأخيرة - لموجات من الاحتلال الأجنبى بدءاً من اليونان والرومان إلى الاتراك والفرنسيين والانجليز . أى أن هذا الاحتلال بما يصاحبه من تغييرات اجتماعية وثقافية قد دام حوالى الفين من السنين . لم تكن اليابان خلال هذه الفترة الطويلة فى أحسن أحوالها ، ولكنها على الأقل لم تتعرض لأوبئة الغزوات الأجنبية، أى لتلك التغييرات المتناقضة والجسيمة لروح الحضارة.

إن سنوات العزلة التى عاشتها اليابان فى ظل حكم التوكوجوا لم تكن فى جوهرها انفصالاً عن الماضى بل تركيزاً له ، ولم تكن مجرد «عداء للأجنبى» أو انغلاق عن العالم ، وانما كانت مرحلة وضع الأساسات المتينة للرأسمالية الحديثة . ليست هى الرأسمالية التى نشأت من زواج الاقطاعى المحلى بالرأسمال الغربى كما حدث فى مصر، لتحديث الأسواق وتصدير الزراعة الرئيسية إلى الخارج. لم تولد الرأسمالية اليابانية على هذا النحو المشوه المسوخ. ولم تولد أيضاً كالنموذج الأوروبى الذى واكبته الكشوف العملية والفلكية والمخترعات، ومن ثم تغيرت العقائد التى تصادمت مع هذه الكشوف وتكونت الطبقة الاجتماعية الجديدة من الصناعة والتجارة وعلاقات الانتاج الجديدة. وانما تكونت أساسات الرأسمالية اليابانية فى فترة الكمون أو العزلة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. وهى الفترة التى شجعت فيها التوكوجاوا الصناعة والتجارة المحليتين من سكان أهل المدن. وكان هذا التحالف الصناعى التجارى هو الذى عنى بالثقافة

والآداب والفنون والطباعة. وبلغ هذا التحالف ذروته الاجتماعية بالمصاهرات الواسعة التى انعقدت بين التجار من ناحية والساموراى من ناحية أخرى، أى بين المؤسسة العسكرية والبيوتات المالية.

اكتملت هذه النشأة للبرجوازية اليابانية الطالعة بحكم الشوجن المستنير «يوشيمون» الذى أباح بين عامى ١٧٠٦ و ١٧٤٤ استيراد المراجع المختلفة من خارج اليابان وبعث بعض الدارسين إلى هولندا لدراسة لغتها . وأقبل الساموراى وغيرهم على دراسة الفنون الغربية والطب والفلك ورسم الخرائط والمساحة وتظم التسليح فى الغرب. وفى سنة ١٨٠٣ قبل أن يتولى محمد على الأريكة المصرية بعامين كان قد تم تأسيس أول إدارة منظمة لترجمة المؤلفات الغربية فى اليابان، باشراف الشوجن .

ولكن ذلك كله قد سبق التحديث الشامل لليابان بنصف قرن . وانما أردت التأكيد على أن هذا التحديث المقبل كان بمثابة البناء فوق أساسات شيدت بثبات قبل مائتين وخمسين عاماً . هذه الأساسات هى التكوين الهادئ والراسخ معاً لعلاقات الانتاج الرأسمالى البطئ والتقويض التدريجى المستمر لأركان العلاقات الاقطاعية فى اطار وطنى محض لم يرتبط فى أىّ من مراحله برأس المال الأجنبى .

وفى عام ١٨٦٨ سقطت اسرة التوكوجاوا ، وانتهى نظام الشوجن ، وبدأ عهد التحديث الكبير ، عهد الميكادو (الامبراطور) موتسور هيتو

الذى عرفه العالم باسم ميجى (أى الحكم المستنير) . ولكن الذى دشّن افتتاح هذا العهد هو مدافع الغرب واساطيله التى دفعت بها الولايات المتحدة وبريطانيا لتكسر العزلة اليابانية قبل سبعة وسبعين عاماً من القاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى. والحق أن الاساطيل الغربية كسرت حدود العزلة وحدها ، فتمكنت من تموين السفن والبشر وحقوق التنقل ، ولكن (العهد) أو الميثاق الامبراطورى فى ذلك العام هو الذى فتح الحدود ، ليس أمام الرأسماليات الأجنبية ، وانما أمام الرأسمالية اليابانية لتجوب العالم الأكثر اتساعاً من جزر اليابان الأربع . كان العهد أو الميثاق من خمس نقاط: دعوة إلى ما يشبه الجمعية التأسيسية لاقامة نظام ديموقراطى يساوى بين مختلف الطبقات ، والتخلى عن «العادات الغريبة» المنحدرة من الماضى، وتنفيذ مخطط مرسوم بدقة لاستيعاب العلوم الحديثة من مصادرها الأصلية . وعلى الفور أرسلت البعثات إلى الخارج فى مختلف التخصصات .

وهو الأمر الذى سبق لمحمد على فى مصر أن قام به منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولكنه توقف . بينما استمر «البناء» اليابانى الحديث فى اقامة الدولة والادارة الحديثة (هذه الادارة هى سر الأسرار فى نظام النجاح اليابانى) والمجتمع الحديث على «أساسات» رأسمالية هادئة البنيان راسخة الأركان أطاحت بالنظام الاقطاعى تدريجياً وفى ثبات .

لم يستقدم اليابانيون رؤوس الأموال الأجنبية فى بناء رأسماليتهم، ولا استقدموا الخبراء الأجانب فى بناء مؤسساتهم. اقترضوا فى حياتهم كلها مرتين، مبلغين صغيرين قاموا بتسديدهما قبل الموعد المحدد. ودرسوا النظم التعليمية والاعلامية والثقافية والمصرفية والقانونية فى أماكن ولادتها ، وقاموا بتعديلها أو استلهامها أو تطبيقها حسب مواصفات الشخصية اليابانية والمصلحة اليابانية . جاءوا بالمستشارين الأجانب لفترات محدودة تحديداً واضحاً ، ضيوفاً مكرمين ، ثم قاموا بتوديعهم انبل وداع وبأرفع الأوسمة والمراسيم .

وبعد أقل من نصف قرن على انطلاقة التحديث كانت اليابان قد تحولت إلى قوة عظمى فى آسيا . ولاهداف تختلف عن أهداف محمد على تُكرر اليابان بعد حوالى قرن تجربة العاهل المصرى فى بناء امبراطورية .

(٥)

«رقعة ضيقة من الأرض ، خمسها فقط يصلح للزراعة ، كيف يمكن أن تعيش بغيرالقوة العكسرية للتفاهم مع الجيران إذا اقتضى الأمر ؟».
كان صديقى اليابانى الذى يعمل خبيراً فى المطبخ الاستراتيچى للسياسة اليابانية ، يحاول أن يبرر لى الفتوحات الامبراطورية التى أقدمت عليها بلاده منذ أواخر القرن الماضى إلى الحرب العالمية الثانية، أى فى ذروة «النهضة» التى أتى بها حكم الميجى. قلت له: «ولكن رقعة الأرض الضيقة ما تزال كما هى ، والخُمْس الصالح للزراعة لم يزد كثيراً ، أما الذى زاد فهو عدد السكان الذى تضاعف الآن واقترب من مائة وعشرين مليوناً . أى انه إذا كانت المشكلة فى صميمها اقتصادية ، فالمفترض أنها تفاقمت». أجاب: «هل تصدقنى إذا قلت لك أن الهزيمة انقذتنا من المشكلة التى تتحدث عنها ، فقد أعطانا السلام ما لم تعطه لنا الحرب».

قلت له: «ولكنه ليس سلاماً مسلحاً» . قال: «هل تظنه حقاً كذلك ؟ إننا جزء من النظام العالمى ، أقصد الغرب ، ولا نشك لحظة فى أن الأمن اليابانى جزء من الاستراتيچية الغربية . ومع ذلك ، فإن الانضباط المدنى فى حياتنا قد حلّ مكان الانضباط العسكرى» .

بالطبع كانت هذه مفردات دبلوماسية ، فالحقيقة هى أن اليابان على طول تاريخها كانت مجتمعنا عسكرياً . ليست هناك مؤسسة عسكرية ، ولكن المجتمع كله مؤسسة عسكرية . أى أن الطابع العسكرى لم يقتصر فى الماضى على جهاز الدولة ، وانما هو نظام اجتماعى وعلاقات اجتماعية وقيم اجتماعية . ولذلك فعندما سقط النظام الاقطاعى ومعه الساموراى لم تسقط العسكرية اليابانية بل خرجت من العزلة الداخلية إلى الانفتاح الخارجى . أى انه بعد قرنين ونصف من البناء التدريجى الصامت للرأسمالية خرجت اليابان لتشيِّد امبراطوريتها. تماماً كالرأسمالية الغربية فى النتائج لا فى المقدمات . اليابان أغلقت الأبواب على نفسها حتى أن بعض المؤرخين وصفوا عزلتها بالصفات السلبية . ولكنهافى واقع الأمر كانت تبنى رأسماليتها الخاصة، الشديدة الخصوصية . لم تكتشف قارات جديدة ولم تجب أساطيلها المحيطات ولم تصطدم بأية بابوية أو كتاب مقدس أو مؤسسة دينية. لم يسبقها عصر «نهضة» كالريتسانس الأوروبى أو كالحضارة العربية الاسلامية. وحين أعلنت ولادتها الشرعية لم يستطع الغرب ابتلاعها ، ساهم فى كسر عزلتها

ليقيم علاقاته الندّية معها . لم يستطع أن يفرض عليها علاقة السيد بالتابع . كان الغرب يتوهم أن الذين عزلوا أنفسهم عن العالم قوم ضعاف . وهى رؤية صحيحة من الخارج . ولكن العزلة اليابانية لم تكن عزلة الضعف والانسحاب ، بل كانت عزلة العمل فى صمت قبل أن يكتشف العالم الحقيقة . ولم يعرف الغرب هذه الحقيقة إلاّ حين واجهته القوة الصاعدة للرأسمالية اليابانية الحديثة ، الرأسمالية الوطنية المولد والنشأة والتربية . ولم يختلف الأمر من مرحلة القبائل المبعثرة إلى مرحلة الجزر الموحدة ، ولا من مرحلة الاقطاع إلى مرحلة الرأسمالية ، فقد ظلت الروح العسكرية دائماً هى القلب النابض لليابان . وتكيفت القيم والعلاقات الاجتماعية مع كل مرحلة ، فالنظام الأبوى وتقديس الأرض وأخلاقيات البوشيدو لم تندثر . تصادمت مع التحديث ومع الخروج إلى العالم ومع المتغيرات الصناعية والأفكار العلمية، ولكنها لم تندثر. تكيفت مع الجديد، وتشكلت مع المستجدات. وفى وقت قصير للغاية قامت الرأسمالية اليابانية بما قامت به الرأسماليات الغربية فى وقت طويل. دعامتها الأساسية فى ذلك البدء من «النتائج» التى توصلت إليها أوروبا والولايات المتحدة ، فلم تحاول اعادة اكتشاف البارود أو القارة الأمريكية ولم تبحث فى التراث اليابانى عن مبررات التقدم . ولكن هذا التراث نفسه لم يقف قط فى سبيلها ، بل العكس ، كان «المجتمع العسكرى» هو جوهر التراث الذى ساعد الرأسمالية المتوثبة على تحقيق طموحاتها

فى اللحاق بعصر الاستعمار . وشهد التاريخ كيف استطاع أصحاب «الرقعة الضيقة» أن ينتصروا على الصين التى سبق لها أن احتلت اليابان الفين من السنين ، وهى ذاتها صاحبة الحضارة التى يزهو اليابانيون بالانتماء اليها .

واضحت اليابان قطباً عالمياً منذ حوالى قرن ، فالذين يحسبون عمر اليابان الحديثة بعمر الكمبيوتر أو الترانزستور أوتويوتا وهوندا وسوزوكى أو كانون ومينولتا ، يخطئون خطأ فادحاً ، لأن فتح اليابان للصين تم عام ١٨٩٤ واختراقها لروسيا تم عام ١٩٠٤ ثم جاءت كوريا ومنشوريا وتايوان وغيرها وغيرها . ولأن هذه الجغرافيا الآسيوية ليست آسيوية تماماً ، فقد كانت مناطق نفوذ للتحالف الغربى الثنائى حيناً والجماعى أحياناً ، السّرى تارة والمعلن تارة أخرى ، لذلك كان صدام الأقدار بين المصلحة اليابانية والمصالح الغربية . وهو الصدام الذى توجته الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فى إحدى المراحل، والحرب الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) فى مرحلة أخرى . وفى هذه المرة الأخيرة لم يكن أمام الغرب سوى القنبلة الذرية لوقف العسكرية اليابانية عند الحدود الاقتصادية للنظام العالمى . أما التوسع الامبراطورى فى آسيا ، فقد أوشك حينذاك على تجاوز هذه الحدود . كانت ألمانيا واليابان عدوتّى الأمس فى الحرب الأولى قد أمسيا حليفىّ اليوم فى الحرب الثانية يشكلان محور الفاشية فى العالم . بل إن اليابان لم تعلن استسلامها

إلاّ بعد أربعين يوماً من استسلام ألمانيا . ولم تتحول أيّ منهما بعد الحرب إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة كما هو الحال فى الدول المهزومة ، ذلك انهما خلعا الأنياب العسكرية فقط ، أما الجسم الاقتصادي والاجتماعى فلم يصب بسوء، لأنه كان قد شُيِّد على أساسات قوية راسخة فى عمق الأرض ، هو البنية الرأسمالية الحديثة .

وهو الأمر الذى يختلف كلياً عن الوضع فى مصر حتى لا تخطئ الحساب . ان التكوين العسكرى للمجتمع اليابانى يقابله التكوين الدينى للمجتمع المصرى . والمجتمع العسكرى فى اليابان أو المجتمع الدينى فى مصر له فى جميع الأحوال الغلبة السّرية أو العلنية ، ولكنها الواقعية . ليس لدى اليابان مشكلة تسمى العلمانية ، فالأديان هناك لا تتدخل ولا تتداخل فى شؤون الدولة ، لأنها ليست ظاهرة مؤسسية كما هو حال الكنيسة الأوروبية فى العصور الوسطى أو كما كان حال دولة الخلافة العثمانية . أما فى مصر الحديثة والمعاصرة فهناك ازدواجية مضاعفة بين الواجهات التشريعية والاجرائية للدولة ، وبين التشريعات والاعراف الشعبية الحاكمة للسلوك الاجتماعى .

كذلك فان نهضة اليابان قد عرفت التراكم المستمر لرأس المال المالى والاجتماعى والثقافى دون انقطاع داخلى أو مقاطعة خارجية . أما مصر - بسبب موقعها الاستراتيچى ودورها المتميز - فقد اصطدمت نهضتها مبكراً بالصدام المسلح والاحتلال المباشر من جانب فرنسا وبريطانيا ،

فانقطع التراكم الذى كان هشاً منذ البداية بسبب الولادة القيصرية للرأسمالية المصرية فى ظل الهيمنة الأجنبية . كذلك تسببت هذه النشأة المشوهة الممسوخة فى انعدام النديّة مع النظام العالمى وسيطرة التبعية فى علاقة الداخل بالخارج . لذلك كانت الثورات المتعاقبة من ١٨٨١ إلى ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ محاولات جسورة لنهضة مصر المتقطعة كثيراً والمجهضة طويلاً .

هل تصلح اليابان اذن نموذجاً ملهما لاستئناف النهضة ؟

جوابى أن اليابان تجربة لا تقبل التكرار ، لا لأن التاريخ لا يكرر نفسه فقط ، وانما لأن الجغرافيا الاجتماعية تختلف .. فاليابانيون خلقوا مجتمعهم العسكرى خلقاً ، وليس استجابة لأية تعاليم أخلاقية ، بل إن هذه التعاليم وما صاحبها من سلوك وضوابط ومعايير كانت استجابة جماعية للتحديات وتكيّفاً خلاقاً مع قوانين البيئة والموقع والمفاجآت . وهى ظروف فريدة لا يُشارك فيها اليابان بلد آخر .

ثم ، من قال أن هذا المجتمع العسكرى الذى حقق الازدهار ، لا ينطوى الوقت نفسه على السلبيات ؟

(٦)

أخطر ما في التجربة اليابانية انها ربطت مستقبلها نهائياً بمستقبل الغرب، وأن الغربيين وحدهم - دون أى شريك أجنبى مهما بلغت درجة تحالفهم معه - هم الذين يرسمون المستقبل حسب أحلامهم ورؤاهم لعالم الغد. انهم وحدهم يخططون الاستراتيجية. أما اليابانيون، فانهم يعملون ولا يحلمون. يبدعون «العمل» المحدود بالاطار المادى لمغزى التكنولوجيا. لا يملكون حلماً انسانياً بعالم الغد، وبالتالى ليس لديهم المشروع المستقل، فهم يعيشون فى نقطة ما بين الاستقلال والهيمنة الغربية. وهى بالطبع ليست هيمنة اقتصادية، لكنها هيمنة المشروع الاستراتيجى للعالم .

بالإضافة إلى الاختراق الغربى المتعدّد الأشكال والأساليب والمستويات، فان الروح العسكرية كانت وما تزال من أسباب غياب الحلم

اليابانى . ونحن نعرف أن الانضباط فى الحضارة الغربية هو الالتزام بالقانون الليبرالى . ونعرف أيضاً أن العرب المعاصرين يعانون من الازدواجية بين الالتزام الدينى والسلوك العملى. أما الانضباط الاجتماعى العسكرى فى اليابان فانه لا يشبه حتى أكثر الأنواع المعروفة بالتزمت كالانضباط الفاشى أو الكهنوتى. فى هذه الأنماط كلها هناك مؤسسة فوقية تأمر بالانضباط وتراقب تنفيذه سواء أكانت هذه المؤسسة هى الدولة الدستورية أو الدولة الدينية أو الدولة الفاشية. فى هذه الأنماط أيضاً هناك فجوة أو مسافة بين الدولة والقوام الاجتماعى. أما فى اليابان ، فإن الانضباط ينبثق تلقائياً من الفرد والمجتمع على السواء، فالمجتمع عسكرى من أسفل لامن أعلى ومن داخله لا من خارجه دون أية مسافة بين الحكم والشعب .

ومعنى ذلك أن كافة القوانين واللوائح والتعليمات المنقولة عن الليبرالية الغربية لا تؤثر مطلقاً فى جوهر «النظام الأبوى» اليابانى الذى نكتشف مظاهره وتجلياته لا فى الجو العائلى فقط وانما فى أرقى الأشكال الاجتماعية كأنظمة العمل. إن الولاء للامبراطور لا يتأثر مطلقاً بالحياة الحزبية، والولاء للعائلة لا يتأثر أيضاً بقوانين الأحوال الشخصية. لذلك فالولاء للمصنع أو الشركة أو المصرف أو المكتب أو المزرعة أو الجامعة يتخذ من الانضباط التراتبى قيمته الكبرى والأساسية. إن الفرد الذى يحقق ذاته فى الجماعة هو الأب الشرعى

للانتاج الكبير المنتظم . والمرأة التى تحقق ذاتها بالفناء فى الرجل هى الوجه الآخرى للعملة ، فالعسكرية أو الأبوية الاجتماعية التى ترفع من الشأن الاقتصادي والصناعى لليابان هى ذاتها التى تخلق أنواعاً من التخلف الاجتماعى والثقافى. لقد بدأت المرأة منذ وقت قريب للغاية محاولتها فى المشاركة الإيجابية . وكان من الطبيعى أن تؤدى العسكرة الاجتماعية إلى تثبيت كل العادات المتخلفة فى ممارسة الحياة اليومية . بل إن المجتمع العسكرى اليابانى قد أدى إلى ما هو أخطر ، إلى غياب المشروع الانسانى .

لذلك ليس هناك فلاسفة يابانيون أو مفكرون من وزن كبير . ولسنا بحاجة إلى ما يعرفه الجميع ، من أن كونفوشيوس وبوذا من أصحاب التعاليم الوافدة إلى اليابان . ويعرف تاريخ الفكر البشرى مجموعة كبيرة من أصحاب الرؤى الفلسفية بين حكماء الصين والهند وعلماء الحضارة العربية الاسلامية . أما اليابان فلم تعرف سوى الشرح على المتون الآسيوية والغربية . ليست هناك مشاريع ورؤى وأحلام انسانية كبرى فى الثقافة اليابانية . هناك اجتهادات جزئية متناثرة بين الأزمنة لا يضمها نسيج موحّد . وفى الحاضر ليس هناك أي جواب فلسفي للسؤال الكبير عن : المستقبل .

لذلك كان المسرح والشعر والطعام والزواج والموت من تقاليد الماضى . فى أهم نوعين من المسرح اليابانى - الكابوكى والنّو - ينتمى أحدهما فى

الشكل والآخر فى الموضوعات إلى الماضى . ولا يختلف الشعر الرائج كثيراً ، فالأغنية القصيرة المسماة بالتانكا (من خمسة أسطر) وقصيدة الهوكو التى تتكون من ثلاثة أسطر ، وهى أقرب إلى الأمثلة الشعبية ، كلتاهما تنحدر من الماضى . هذا الشعر التقليدى وذاك المسرح الشعائرى هما نصف الأدب : الذى يجتر الماضى ويستعيد القضايا «الخالدة» التى لا تتغير ، قضايا الحياة والموت والتعاسة والسعادة والقضاء والقدر . أما النصف الآخر فهو أدب الحرب والقصة البوليسية . وأما الفنون التى تتميز باحساس مرهف بالنقش على الحرير أو الخشب ، فانها تنتمى إلى التقاليد الزخرفية . أما الرواية والقصة القصيرة فهما يقولان بأفصح بيان كلمة من ثلاث : لقد اغتيلت روح اليابان ، أو اننا لا نستحق الهزيمة ، أو أننا يجب أن نشعر بالذنب الجماعى . والكلمات الثلاث تنعى اليابان القديمة والجديدة على السواء .

ومعنى ذلك أن الأدب اليابانى الحديث والمعاصر يتحرك فى دائرة ضيقة بين الماضى والموت . وهو يتحرك حركة عسكرية ، فاليابان القديمة التى ينعيها هى الشوجن والساموراى الرمز العسكرى المقيم فى أعماق القلب اليابانى ، والهزيمة التى لا يستحقها هى هزيمة العسكرية اليابانية فى الحرب العالمية الثانية . لذلك فالعسكرة الاجتماعية فى اليابان تضمر نوعاً من الحنين إلى الماضى الدكتاتورى المستبد وتكبت اشتهاء مقموعاً للفاشية . وهذا ما يجعل الغرب دائماً فى حالة «انتباه» من أى صعود

ياباني، وحالة حذر من أي تفوق ياباني . ولا شك أن اليابانيين يشعرون بالتفرد والاختلاف . وهو الشعور الذي يقود أحياناً إلى مزيج غامض من العنصرية والاحباط. مصدر الشعور العنصري هو ما حققوه من تقدم اقتصادي وصناعي فاق كل التوقعات . ومصدر الاحباط أن مستقبلهم ليس في أيديهم، فهم لا يملكون أي مشروع للمستقبل . وهذا الغياب للمشروع الانساني هو الذي يحاصر ابداعهم العلمي في دائرة الجزئيات ذات النفع المباشر ، فليس صحيحاً انهم شعب من المقلدين . لقد بدأت تجربتهم في التحديث بالتقليد جنباً إلى جنب مع بناء الأساس الصناعي للعلم والقاعدة العلمية للصناعة . ولكنهم مع ذلك لم يبدعوا السفينة وهم أبناء البحر ولم يبدعوا الطائرة أو التليفون أو الساعة وهم أبناء الشمس البعيدة ، ولم يبدعوا الراديو أو التليفزيون. ولكنهم ابدعوا بكل تأكيد آلاف الآلات الدقيقة وآلاف الأجهزة الهامة، وطوروا آلاف الآلات والماكينات. وهم في اختراعاتهم وكشوفهم ليسوا أصحاب مشروع لمستقبل العالم أو مستقبل اليابان. إنهم أصحاب الابداعات «التنفيذية» إن جاز التعبير. أما أصحاب الكشوف الكبرى فهم أصحاب المشاريع الكبرى والفلسفات الكبرى والأحلام الكبرى .

ولنتأمل هذه النهايات الواقعية لأكبر ثلاثة روائيين في تاريخ الأدب الياباني الحديث والمعاصر .

أولهم ياسونارى كاوباتا الذي يدعونه أب الأدب الياباني الحديث، وقد

ولد عام ١٨٩٩ وتخرج من جامعة طوكيو عام ١٩٢٤. وبعد عامين فقط أصدر كتابه الذى يزاوج بين الرواية والسيرة الذاتية «راقص الأوزو» . وقد عرف عنه انه يعيد كتابة قصصه حتى لحظة دخولها المطبعه . ومن أشهر أعماله رواية «بلد الثلج» التى ولدت أصلاً كقصة قصيرة. وكتب «البحيرة» عام ١٩٥٩. وهو الكاتب اليابانى الوحيد الذى حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٨. وكتب قصة «حزن وجمال» التى تستحق الالتفات الشديد، فهى قصة الكاتب الذى يذهب إلى كيوتو عشية رأس السنة باحثاً عن محبوبته القديمة: أوتوكو الرسامة المشهورة التى تخطط لانتقام فاجع يحول دون اللقاء.

طبعاً، كان من اليسير على الناس جميعاً أن يعرفوا فيما بعد أن الكاتب بطل الرواية هو كاواباتا نفسه وان المحبوبة المأسوية هى اليابان القدمة ذاتها ، ذلك أن كاواباتا سرعان ما انتحر فى ١٦ ابريل ١٩٧٢ . لقد بحث عن اليابان القديمة فلم يجدها ، ولم يستقبل رأس السنة الجديدة أو العالم الجديد ، فلم يجد لحياته معنى وانتحر.

أما أسامو دازاى فهو ثانى أكبر أدباء اليابان المعاصرين ، وقد ولد عام ١٩٠٩ من أسرة ثرية ، وعاش حياة بوهيمية فأدمن المورفين واصيب بالسل . كتب «أناس الشمس الغاربة» التى صارت وصفاً شعبياً لأمثال هذه العائلة المكونة من سيدة ارستقراطية تركت بيتها فى الحرب وعاشت فى حضن الجبل. ابنها يعود من الحرب وقد تسمم دمه بالمخدرات، ولكنه

وشقيقته يغوصان فى وحل الابتذال إلى القاع. وحول انهيار اليابان ونعى الماضى كتب دازاى رواية «العارى» و «وداعاً». وفى ١٩٤٨ انتحر الروائى الكبير بالقاء نفسه فى سدّ تاماجاوا فى طوكيو، واكتشفت جثته فى ١٩ يونيو ذكرى ميلاده التاسع والثلاثين.

يبقى أشهر وأكبر كاتب يابانى يعرفه الناس خارج اليابان، وهو يوكيو ميشيما صاحب رواية «اعترافات قناع» التى يتابع فيها صعود الفاشية قبيل الحرب وأثناءها ثم سقوطها غداة الحرب. عشرون عاماً فى حياة رجل من لحظة الولادة والطفل يستحم تحت الضوء المنكسر على النافذة والحوض ، إلى هاوية البلطجة والشذوذ والهلاك الأبدى .

وعلى الطريقة اليابانية الشعائرية انتحر يوكيوميشيما ، ثالث الثلاثة الكبار فى الأدب اليابانى الحديث والمعاصر .

هل هى الصدفة أن يكون الثلاثة أكبر الرموز المعنوية فى الثقافة اليابانية ، وان يتخصصوا فى تصوير الماضى والانهيارات والموت ، وان ينتحروا جميعاً ؟

ليست صدفة ، بل هو الطريق المسدود فى غياب الحلم الانسانى .

الفصل الثانى

هيروشيما حبيبى

(أ)

عندما طلب منى البروفيسور يوشيمورا أن اقترح عليه اسماء الأماكن والمدن التى أرغب فى رؤيتها أثناء زيارتى لليابان لم أتردد لحظة فى أن تكون هيروشيما هى أول المدن وأن تتاح لى فرصة اللقاء بأسرة يابانية تسكن المنطقة منذ نصف قرن مثلاً، وان أشاهد المتحف المخيف الذى سمعت انه يضم بقايا الكارثة التاريخية .

وكانت الطلبات في مجملها ممكنة باستثناء الأسرة الهيروشيمية التى تحتاج إلى جهد خاص ، لأنها مسألة تخضع «للمصادفات الشخصية» لا إلى التخطيط الرسمى.

واقبلت هذه «الصدفة الشخصية» حين اصطحبنى السيد عبد الجواد - الطالب المصرى فى جامعة واسيدا - إلى هيروشيما حيث يعرف

صديقه يابانية تقيم هناك ، تحدث معها تيلفونياً من طوكيو واوساكا ونارا وكيوتو (وهى المدن التى قمت بزيارتها قبل هيروشيما) ليؤكد عليها أن تكون فى انتظارنا يوم ١٥ سبتمبر (ايلول) ظهراً على رصيف محطة القطار ، وان تكون قبل ذلك قد عثرت على الاسرة اليابانية التى لا تمانع فى استضافتنا ساعتين أو أكثر قليلا .

ودعت كيوتو عاصمة اليابان القديمة صباحاً فى العاشرة إلا اثنتى عشرة دقيقة. وكنت أعلم اننى سأصل هيروشيما بعد حوالى ثلاث ساعات إلاّ ربعاً ، أى بعد الثانية عشرة ظهراً وثلاثين دقيقة على وجه التدقيق. لا ثانية تزيد ولا ثانية تنقص .

والمسافرون يقفون بنظام صارم عند المؤشرات والأرقام الدالة على العربات التى سيدخلون من أبوابها إلى مقاعدهم المسجلة على بطاقات سفرهم . ليست هناك ابتسامات عريضة ولا تقطيبات منفره. وجوه محايده لا تتزاحم ولا ترفع الصوت. ولم أشعر بدورى حتى بصوت القطار . رحت استعيد مشاهد من فيلم «هيروشيما حبيبى» واتذكر كل ما قرأته وما سمعته عن المأساة . كثيراً ما أحسست بالهلع وأحياناً بالاشمئزاز والقرف . وحاولت بقدر ما استطيع أن أطرد هذه الكلمات التى قالها لى جارى فى الطائره بعد دقائق معدودة من تحليقها فى سماء القاهرة : «أصارحك بأن ضربتنا لبيرل هاربر كانت مغامرة يأس ، أما القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكى فقد كانت نهاية للحرب».

حاولت أن أبعد صدى الكلمات وإيقاعها الموجع للسمع. بعد صمت قصير قلت له : ولكن المسافة الزمنية بين هزيمة الأميركيين فى بيرل هاربر (٧ ديسمبر - كانون الأول ١٩٤١) إلى استسلام اليابان (١٥ اغسطس - اب ١٩٤٥) بعد استسلام ألمانيا (٧ مايو - ايار ١٩٤٥) بثلاثة أشهر، انما يؤكد أن ضربة بيرل هاربر كانت بداية حرب لا مغامرة يأس. كذلك فإن استخدام الولايات المتحدة للقنبلة الذرية ، كان يعكس على نحو آخر قوة اليابان ، وان الأميركيين لم يكن لديهم بديل آخر لوقف القتال . لم تكن «القنبلة» مجرد تجربة ، وإلا فانها تحمل معنى أخلاقياً مروعاً ، بل كانت فى المقام الأول «سلاحاً يضمن النصر».

كان جارى اليابانى قد أنصت لكلماتى جيداً، وقد أمسك بكأس الشمبانيا، وتبينت رغم الضوء الضعيف انه يبتسم، فقد اعتدلت الطائرة فى اتجاهها الأفقى حين كان يقول: لن أسوأ ما فى الطائرة اليابانية هذا «الكرم» فالمضيفات هنا لا يتركن لك فرصة للنوم. اننى سأهبط فى بانكوك لارتباطى بموعد هام . اننى أحد مدراء شركة هوندا هل تعرفها؟ وعندما هززت رأسى وأنا أبتسم قال: بالطبع تعرفها، فأنا أعلم أن مصر تستوردها. قلت له: ليست مصر وحدها. وحسبت لحظة انه بدأ ينام، ولكنى فوجئت به يسألنى: فهمت انك رجل من هؤلاء الذين يحترفون الكتابة والتفكير ، أما أنا فرجل كما ترى احترف الادارة. كلانا يشتغل بعقله، ولكنك تشتغل به لحساب الأفكار، أما أنا فاشتغل له لحساب

شركتى. دعنى أسألك: كيف تنظر الآن إلى القنبلة الذرية فوق هيروشيما، هل تراها من خلال الدموع أم من خلال الواقع؟ أجبته مداعباً: وهل ترى الواقع بلا دموع؟ قال: أنا لا أفهم فى التاريخ، ولكنى أعتقد مخلصاً أن القنبلة رغم مأسوية نتائجها البشعة كانت لخير اليابان وخير الانسانية . ظننته يسخر فى بادئ الأمر، ولما أيقنت انه جاد ، ذُعرت . ولكن صوته عاد يطرق اذنى : لا تدهش من أن يقول لك هذا الكلام يابانى يحب بلاده ، فقد انقذتنا «القنبلة» من الحرب ومن الآلة العسكرية اليابانية ، وأنقذت القارة الآسيوية من طغيان هذه الآلة، وفتحت لنا آفاق الاتصال السلمى بالعالم وافاق الديموقراطية التى نحياها . لولا القنبلة لكنا ما نزال أسرى الموسسة العسكرية التى ذقنا على يديها أهوال الدكتاتورية فى الداخل والثمار المرة لاحتلال الشعوب المجاورة فى الخارج . وطلب جارى كأساً آخر ثم استأنف كأنه حريص على «استنارتى» قبل وصولى إلى اليابان : سأقول لك بصراحة أكبر ، اننا نشكر الاحتلال الأميركى لأنه ساعدنا فى بدء حياتنا الجديدة.

كان السيد عبد الجواد يدعونى للنهوض الى الكافيتريا لنشرب شيئاً، حين كنت مستغرقاً فى النظر من نافذة القطار، مستمتعاً بهذه الخضرة التى لا تنقطع بين هضاب ووديان وسهول تشقها الجسور والمياه من كل جانب. كأنك فى معرض ساحر للطبيعة الحيّة، وقد هطلت الامطار فى نارا وكيوتو من قبل، ولكن السماء المشرقة بالشمس قد

منحت الفضاء الواناً فاتنة واشكالاً تدعوك الى التأمل: لماذا توحد الناس هنا مع الطبيعة على هذا النحو البارز فى ديانة الشنتو؟

ليست الطبيعة اليابانية مسالمة الى هذا الحد، فتحدياتها تفوق مفاتنها. ولكن التحديات ومضة فى العمر تصنع الوحدة بين الانسان والطبيعة وتمضى. أما السحر الفاتن فهو الحى الباقى بعد كل زلزال أو إعصار أو بركان أو عاصفة، لم تعد هذه الزلازل استثناءات ترعب، فقد تعايش معها اليابانيون بحيث لم يعد للموت رهبة ولا هيبة.

هل كان هذا «المعنى» وارداً فى وعى اليابانيين ولا وعيهم حين انقض عليهم الزلزال كصواعق الكوابيس العمياء من حمم البراكين وجنون الاعاصير؟ هل تدخّل الموقف الدينى من الطبيعة فى استقبال الجحيم الذرى غير المسبوق فى هيروشيما؟ وهل كان Takashi Tsuchiya تاكاشى تسوشيا المدير الميدانى لشركة هوندا فيما وراء البحار، يعبر عن «هول الصدمة» أم عن جيل المأساة، عن أهل هيروشيما أم عن شعب اليابان، عن البرجوازية التجارية المحلّقة أم عن التوسع اليابانى المعتمد على السلام الاميركى؟

لم أكن قد اكملت تساؤلاتى الصامتة حين ادركت أن هذا القطار السريع الفاخر قد اخذ يهدّئ من سرعته، وأننى أصبحت الان على مدى البصر من هيروشيما. وأحسست داخلى بما يشبه الرجفة فى القلب. لعلى مازلت مأخوذاً بصوره المدينة الخيالية، وهى توشك أن تكون واقعاً حيّاً.

ترى، ماذا تبقى من القنبلة؟ وماذا كان فعل الزمن؟

وعندما نزلت من القطار كانت هناك هذه الصديقة اليابانية على الرصيف أمام باب العربة، وما أن شاهدتني برفقة السيد حتى بادرتني بالانجليزية ترحب بنا فى عبارات ناصعة افضل كثيراً من تلك الانجليزية التى سمعتها كثيراً فى طوكيو، قالت: اهلا بك فى هيروشيما الاكثر جمالاً من صورتها فى الكتب. وابتسمت، وسارعت الى القول بأن صديقتها تنتظر فى السيارة خارج المحطة، فنحن امامنا ربع ساعة لنصل الى بيت العائلة اليابانية. سألتني عما اذا كنت أرغب فى زيارة العائلة أولاً أم التجول فى المدينة. قلت: العائلة أولاً حتى نفرغ لمشاهدة «كل شئ» بعد ذلك . قالت: لقد جئت ببعض السند ويتشات اذا فضلت التجوال فى المدينة، أما اذا كنا سنتجه الى الاسرة صديقتنا، فإننا سنتناول طعاماً يابانيا هناك. قلت: الآن، حُسم النقاش.

كانت هذه شيتوجوشى Shito Guchi وهى فتاة مرحة تعشق الاستفسار عن البلاد الأخرى، وتحب السفر وتعمل فى صناعة الحليّ المعدنية للسيدات، بسيطة المظهر انيقة الحديث، تشعر كأنك تعرفها منذ وقت. وما أن وصلنا خارج المحطة حتى وجدنا السيارة الصغيرة التى تملكها صديقتها ياسوكو Yasuko وقد هبطت منها حالماً. رأتنا وتجلت ابتسامتها العريضة عن صحية غنية بالتفاعل الانسانى.

كلتاهما تجاوزت الثلاثين اذا صدق حدسى، فالمرأة – أو الفتاة –

اليابانية يصعب تحديد عمرها بسهولة. ولكنى عرفت انهما لم يتزوجا.
سألت شيتوجوشى التى تعرف الانجليزية: هل هناك ازمة زواج؟ فى مصر مثلاً أزمة اقتصادية طاحنة رفعت سن الزواج، من آثارها الاجتماعية أن الفتاة التى كانت فى الماضى تصل الى العشرين دون زواج ندعوها عانساً، أما الآن فإنها تصل الى الثلاثين دون خشية من هذه التسمية السخيفة، فى الغرب يختلف الأمر، لأن مبدأ الزواج نفسه لم يعد مقدساً أو ضرورياً. لقد تطورت الامور من الزواج العشوائى أو المحسوب دون حب، إلى الزواج تتويجاً لقصة حب، الى الحب فى بيت واحد دون زواج، الى ممارسة الحب عند اللزوم بين اثنين يقيمان فى بيتين منفصلين. وقد استوجبت هذه المسيرة كفاحاً طويلاً واستهلكت ملايين من صفحات الادب والصراع المرّين الدولة والكنيسة والمجتمع حتى يعترف الاطراف الثلاثة بنتائج هذا التطور، كاعتراف الدولة بالاطفال الذين كنا ندعوهم غير شرعيين والسماح بالاجهاض وغير ذلك.

كان صديقنا المصرى يترجم الكلام مباشرة الى اليابانية بناء على طلب ياسوكو التى لا تعرف لغة أخرى. وقد اشتركت فى الرد على اسئلتى. قالت: إن الفتاة هنا لا تتزوج غالباً قبل الانتهاء من دراستها، ولكن ظاهرة الاعراض عن الزواج فى سن مبكرة هى ظاهرة طارئة وجديدة، وأضافت شيتوجوشى: ليست لدينا أزمة اقتصادية كما هو الحال عندكم، وليست لدينا التقاليد المستحدثة فى الغرب والتى تنفى أهمية الزواج.

ولست استطيع أن أطلق على التأخر فى سن الزواج ظاهرة يابانية، فهى كما اتصور حالة نفسية قد تكون عابرة.

كان الحوار قد شدّنى عن هوايتى المفضلة فى مشاهدة الطبيعة من نافذة السيارة. وكان قد شدنى أيضاً عن الرجفة الخفية كلما تذكرت أننا نمضى على أرض هيروشيما. لم تكن الفتاتان قد ولدتا حين «قامت القيامة» يوم السادس من أغسطس عام ١٩٤٥. اكملت يا سوكى: فى الثامنة صباحاً والعشر دقائق، كأنها تؤدى صلاه مقدسة نطقت بهذه العبارة. لم تكن أدركت معنى «قامت القيامة»، ولكنها احست على نحو ما اننى اتكلم عن يوم جهنم. وقادنى التحديد الدقيق لبدء الزلزال الاكبر الى مكانة الذاكرة اليابانية. هذه الفتاة لم تر شيئاً ولم تسمع شيئاً ولم تلمس شيئاً. ولكنهم قالوا لها كل شئ. فى عينها صورتان لا ينمحيان، أولاهما فى العمق العميق رسمتها الذاكرة على هواها. كل الخراب والدمار والتعاسة البشرية تجسدت فى ملامح لا تزول عن وجوه الناس والنبات والحيوان والأرض والهواء فى الأصوات والروائح والاشكال والألوان، صورة الكابوس الجحيمى المشتعل بنار الشياطين. اما الصورة الاخرى التى تجاورها الى الامام أو الى الخلف أو الى اليمين أو اليسار، فإنها هذه الصورة التى أراها الآن للطريق إلى الفردوس. هذه الخضرة الطاغية والزهور الزاهية والمبانى الحديثة والطرقات الناعمه والسلوك المهذب. وكنا قد وصلنا الى ضاحية تتفجر بالحياة والجمال والجاذبية.

وعند باب بيت تقليدى من الخشب توقفت السيارة، واذا بشاب ربما كان فى الثلاثين أو الأربعين يرتدى بنطلوناً من الجينز والى جانبه سيدة رقيقة ترتدى بنطلوناً نسائياً يقفان فى حالة انتظار. وما أن هبطنا من السيارة حتى كان الترحيب العذب والابتسامات الجميلة. كان الرجل هو صاحب البيت هيروكى واكاياما Hiroaki Wakayama وكانت السيدة زوجته شيكو Chieko وما أن هممت بالدخول حتى وجدتنى فى ورشة أو متحف أو معرض أو هذه كلها فى مكان واحد. اشار هيروكى قائلاً: هذا هو البيت القديم الذى كان لأبى، ثم اشار الى مبنى مجاور قائلاً: وهذا هو البيت الجديد الذى فيه تزوجت. سنجلس هنا، نتناول طعامنا ونتحدث. اختفت السيدة شيكو فى المبنى الآخر. ولكن الطفلين بقيا معنا. ورحت اتفرج على اللوحات البارزة التى تقع بين التصوير والنحت، واذا بى أرى شابا آخر يدعى كينجى تانابى Kenji Tanabe وجدته يجلس خلف طاولة كبيرة مليئة بأدوات وأحبار، وقد علقت وراءه على الجدار لوحتان منحوتتان. سألته: ماذا تفعل بالضبط؟ قال: اننى انفذ ما يطلبه السيد هيروكى قلت: وماذا يطلب منك السيدهيروكى؟ أجاب: هذه اللوحات والتماثيل التى تراها. إنه فنان كبير أما أنا فصانع، هو يفكر بالخيال وأنا أجسّم أفكاره كما ترى. هذه ورشة وهذه هى الخامات والرسومات. وهناك كتالوج ضخم يضم الكثير من أعماله، ويضم أيضاً صورة نادره لوالده. سألته: كم تبلغ من العمر؟ اجاب مبتسماً: ٢٨

سنة. قلت: هل تفكر في أن تكون صاحب ورشة؟

* الفن موهبة تولد مع الانسان. موهبتى أن انفذ ما يطلبه الفنان، وأنا سعيد بذلك.

- هل انت سعيد فى حياتك؟

* اعتقد ذلك، فأنا أقوم بالعمل الذى أحبه.

- وتتقاضى الاجر الذى يكفيك.

* بالتأكيد

كانت شيتوجوشى هى التى تترجم الحوار فسألتها عما اذا كان يشعر بالارتياح، أم أنه يفضل مكانا آخر للحوار المنطلق من قيود العمل ورب العمل. أجابها وهو يضحك:

* ليس هنا ما يحول دون الارتياح.

- انت ترتدى زيًا اميركيا ، اليس كذلك.

* إنه صناعة يابانية.

- ولكنه تصميم اميركى.

* هل اللون الازرق اميركى؟

- ليس اللون .. هل ترفض أن يكون الزىّ اميركياً؟

* لست أرفض، ولكنه زىّ عالمى.

- هل اميركا هى العالم؟

* بالطبع لا .. ولكنها بلاد عظيمة وشعب عظيم.

- وحكومتها ؟

* انني لا أفهم فى السياسة ولا فى الحكومات.

- ماذا يعجبك فى الاميركيين؟

* مبادرون ومغامرون، ونظامهم لا يمنعهم من المبادرة ولا من المغامرة. انهم شعب صاحب خيال، وخيالهم قادر على قيادتهم الى أجهل الحقائق المجهولة.

- انت شاعر أم فيلسوف، من أين جئت بهذا الكلام؟

* اننا نعرف الاميركيين معرفة مباشرة.

- ولكنك لا تتكلم الانجليزية؟

* هذا تقصير منى، ولكن اغلب اليابانيين يعرفونها.

- ولا يجيدونها.

* لسنا بحاجة الى اللغات الاجنبية الا لأن الاجانب لا يعرفون اليابانية. ولكن لغتنا غنية بكل ما نحتاج اليه فى العصر الحديث. اننى لم احصل على شهادات عليا، ولكنى مولع بالقراءة.

- ماذا تقرأ.

* الصحف والمجلات، أقرأ فيها كل شئ ماعدا السياسة، اشعر حينئذ اننى اغرق

- هل تجهل السياسة حقاً؟

* لست اجهلها، ولكنى لا افهمها.

وضحك، فسألت شيتوجوشي عما يضحكه. وبعد أن استفسرت منه قالت لي: إن اليابانيين يولدون في السياسة ويموتون في السياسة، لذلك فهم جميعاً لا يجهلونها. ولكن الذي يقصده كينجي هو أنه لا يمارس اللعبة السياسية في الاحزاب أو المنتديات. إنها كما يقول تضيّع وقته الذي يمكن أن يستفيد منه في القراءة أو مشاهدة السينما. وهو يضيف أن السياسة موهبة، وأنه ليس موهوباً في شؤونها. وهذا ما يعنيه بانه لا يفهمها.

- هل تريد أن تكون اليابان مثل الولايات المتحدة؟

* كلاً، أريد لليابان أن تكون افضل.

- هل هي الآن افضل؟

* نحن افضل في اشياء وأقل في اشياء.

- كيف تقيس هذه الاشياء وتلك الاشياء؟

* إنني لا اقيس، وأنما أرى وأفهم.

- لكل شئ مقياس يدلله على الافضل وعلى الاقل، فهل تكون المصلحة اليابانية مثلاً هي النموذج، أم التكنولوجيا؟

* هذا كلام صعب. ولكني لست في منافسة مع أحد، لامع الاميركيين ولامع غيرهم. المصلحة اليابانية هي أن نتفوق على انفسنا دائماً، لا على الآخرين. كلمة المنافسة تعني الحرب. والحرب كلمة غابت عن القاموس الياباني الجديد. لم نعد نعرفها ولا نريد أن نعرفها.

- المنافسة السلمية لا علاقة لها بالحرب.

* وقد تقود الى الحرب.

- هل تقصد الازمات التجارية بين اليابان والولايات المتحدة؟

* إننى مع التجارة الى اقصى حد، ولكن دون أزمات.

- واذا كانت الولايات المتحدة هى التى تفتعل الازمات، فهى تطلب مثلاً من الحكومة اليابانية ان ترفع الدعم عن المحصولات الزراعية، وهو الأمر الذى يرفضه المزارعون اليابانيون، ولهم الحق.

* بالطبع، إنهم يريدون ترويج محصولاتهم وصناعاتهم وتجارتهم، ونحن كذلك. فى هذا السباق سوف تربح اليابان. ولكنه الربح الذى يؤدى الى أزمات لا نريدها.

- انتم لا تريدون الازمات، ولكن غيركم لا يعبأ بارادتكم.

* نستطيع أن نغير سلّم الاولويات. لقد ضحينا كثيراً من أجل السلام، فماذا يحدث لو اننا ضحينا اكثر قليلاً.

- هذا السؤال موجه الى الشعب اليابانى.

* وأنا احد ابناء هذا الشعب، اننى من العمال، والمطلوب هو تضحية من جانب الاغنياء.

- الاغنياء اليابانيون يضحون من أجل الاغنياء الاميركيين؟

* قلت لك أننى لا أفهم فى السياسة.

فى ذلك الوقت كان هيروكى يدعونا الى الغداء حيث أجتمعت السند

ويتشات اليابانية وطعام البيت الذى يتكون من السوكياكى وهو شرائح رقيقة من لحم الدجاج والخضروات المطبوخة أمامنا، والتيميورا التى تتألف من الجمبرى الكبير (القريدس) والسمك المعجون المقلى بزيت السمسم. وأحضر الفنان صاحب البيت مجلداً فاخر الطباعة يحتوى على صور بعض أعماله وصورة نادرة لوالده. وقد لفت نظرى أنه يحمل المجلد بطريقة خاصة كأنه كتاب مقدس، وهو يقول لى: هذا أبى، هذا أبى. ثم استرد المجلد وأعاده الى غرفة اخرى. كان طفلاه يلعبان حولنا، ولم تظهر زوجته، فأقبلنا على الطعام والشاى المثلج، والحوار المتقطع. كانت اللوحات البارزة قد بهرتنى بسحرها الذى لا يقاوم. قال لى: إنه يستعد لمعرض خاص، يبيع فيه انتاجه وينتظر من بعض الجهات أن تطلب أحياناً عدة نسخ من عمل واحد بعينه. استطرد أنه يعيش سعيداً بما فيه الكفاية، فانتاجه مطلوب. سألته عما اذا كانت هيروشيما توحى له بأعماله، فإجاب: نعم، ولكن هيروشيما بالنسبة الينا ليست فقط هى القنبلة والدمار. إنها مدينتنا ذات التاريخ العريق والذكريات السابقة على القنبلة، هيروشيما فى عيون العالم اسطورة، أما لنا فهى الحقيقة والواقع والحياة الوحيدة التى نعرفها. هيروشيما هى أحلام طفولتنا ومرتع صبانا وإقاصيص شبابنا، دنيانا الكاملة. بالنسبة لغيرنا هى طابع بريد أو كارت بوستال أو قطعة موسيقية أو لوحة أو إدانة سياسية أو إحساس بالذنب. ولكن هيروشيما التى تخصنا، هى العالم. يوم أرادوا قتلها أرادوا قتلنا. يوم حاولوا ذبحها حاولوا ذبح تاريخنا ومستقبلنا.

أقول حاولوا لأن القنبلة لم تذبحنا ولم تقتلنا، فلقد مات منّا من مات، ولكن هيروشيما لم تمت كما ترى. إنها اكثر حياة مما كانت.

أوقفت الهدير الشعرى الذى حال فى بعض اللحظات دون انبثاق الابتسامة المرحة، قلت للفنان الشاب: يقال إن ضرب بيرل هاربر كان مغامرة بينما كان ضرب هيروشيما نهاية للحرب. أجابنى: ضرب بيرل هاربر كان جزءاً من الحرب، وكان الضرب الذرى نهاية لها. ولكن ما ابشع النهاية. إننى ضد كل الحروب، حتى ولولم تضرب هيروشيما، حتى ولو انتصرت اليابان. وهو فى ظنى الانتصار المستحيل، تماماً كانتصارات هتلر المستحيلة. لا انتصار للنازية أو الفاشية أو الدكتاتوريات العسكرية. الانتصار الوحيد الممكن للديموقراطية والحرية. ربما يطول الزمن حتى يتحقق الانتصار. ولكن هناك أموراً يجب الا نحسبها بالارقام، وانما بالايمان. إننى أومن ايماناً جازماً بأن الحروب لاتجدى وان الفتوحات العسكرية لا تستمر وأن القمع أو الاستبداد لا يثمر. هذا هو ايمانى.

قلت له: ولكنك تقول هذا الكلام من وحى هيروشيما التى نعرفها نحن الاجانب، وانت تنكر أن تكون هذه هى هيروشيما. قال: نعم، ليست هيروشيما هى القنبلة. تأمل هذه المنحوتات، هل رأيت من بينها لوحة مأسوية؟ ولكن هيروشيما حاضرة فى كلّ منها، فى الاحجام والالوان والفضاء والكتلة والفراغ والاضواء والظلال. حاضرة بتاريخها كله. حاضرة كأنها اليابان. قاطعته: الاحظ انك تهتم بالتشخيص، بالوجوه

والرؤوس والاجسام البشرية. أين التقاليد اليابانية هنا ؟ اليست النمنمات والألوان الزاهية والحكايات الشعبية هى ملامح الفن اليابانى؟ قال: هذا هو الوجه الذى تعرفونه من الفنون اليابانية، وهو الوجه الزخرفى. وهو فن تقليدى فعلاً. ولكن الفنان اليابانى الحديث والمعاصر يخلق اسطورته خلقاً، ولا يصوّر اساطير سابقة. ولسنا نجد تعارضاً بين الرسوم الدقيقة الصغيرة التكوينات والالوان الزاهية، وبين أن تكون لنا أسطورتنا. قد يلجأ البعض الى التجريد أو التجسيم، الى التكبير أو التصغير، الى التشخيص أو الطبيعة. ولكننا فى كل هذه التجلّيات نستعيد طفولتنا. لا نستعيدها تماماً لانها حاضرة، قل إننا نزيدها حضوراً. هيروشيما هى طفولتنا. ونحن لانجد تعارضاً بين الطفولة والموت. لقد مات اطفال هيروشيما. كان الرجال فى ميادين القتال، وكان الاطفال هم الذين يقومون بأعمال البيت والمدرسة والانتاج حين باغتهم الزلزال الذرى. لذلك كان العدد الاكبر من القتلى على الفور هم الاطفال. بالطبع مات رجال ونساء وشيوخ وشباب، ولكن الاطفال هم الرمز الاول للموت. لذلك جمعت هيروشيما فى فنوننا بين الطفولة والموت، حتى دون أن ترى طفلاً أو موتاً. فى فنوننا ذلك الامتزاج العفوى بين الخطوط والالوان وبين الكتلة والفراغ وبين الضياء والظلال من غير حاجة لمعنى البراءة فى وجوه الاطفال أو معنى الكارثة فى جماجم الموت.

كان هيروكى يتكلم بغير حاجة للانفعال. لم يكبت غضباً أو حزناً.

كان يتكلم على السجية كأنه يشرح درساً. لم يكن يرشد سائحاً، وإنما كان دون أن يقصد، يعلمنا.

وقد لاحظت أن زوجته لم تحضر أثناء الطعام، ولكن طفليه كانا يسألانه طول الوقت عن هذا الضيف الغريب الذى يأكل معهم. ولم يكن من المستغرب على كينجى العامل المدرب أو الصانع الماهر أن يمسح فمه أثناء الطعام فى أكمام قميصه أو أن يمدّ الطفلان أيديهم على المائدة كأنهما يلعبان. كان واضحاً أن النظام الأبوى مستمر فى قلب الفن والحداثة والاسرة العصرية. حضرت الزوجة أخيراً، واستعدت شيتوجوشى وياسوكو والسيد عبد الجواد للرحيل. وكان الجميع حريصين على التقاط الصور التذكارية. وتبادلنا الأمانى الصغيرة والكبيرة: أن نلتقى من جديد فى عالم بلا حروب. وكانت السيدة شيكو فى كامل أناقتها البسيطة تستطلع وجوهنا لحظة الوداع كأنها تريد أن تعرف ماذا دار بالضبط بين «السيد» زوجها وبينى. أمّا انا فقد بادلت كينجى ابتسامته العريضة وقلت له: اننى ذاهب الى «الذاكرة اليابانية»، الى متحف هيروشيما، باحثاً عن السلام الذى تسعى اليه باى ثمن.

(٣)

أخذت افكر فى كل ما رأيت وما سمعت خلال الساعات القليلة التى أمضيتها مع هذه الاسرة اليابانية المتوسطة الحال. أحاسيس غامضة متفاوتة تعتمل داخل العامل وداخل رب العمل على السواء. اميركا العدوة المحبوبة والحاضر المشحون يقلق خفى. الرجلان كلاهما ينشدان السلام من موقعين مختلفين تماماً، هذا يطلبه حتى تستمر الحياة وذاك يطلبه حتى تنتصر اليابان.

الفتاتان يمنحانك شعوراً بأن المرأة اليابانية لتوها خرجت الى الحرية، وربة الدار تمنحك شعوراً بأن هذه الحرية ما تزال فى مرحلة الاتياس. الشاب الذى يستخدم أحدث الأجهزة فى التلوين والتشكيل لا يجد غضاضة فى الاستغناء عن المناديل الورقية باستخدام اكمام قيمصه فى تنظيف شفتيه أو تجفيف بصاقه.

والتأملات تكاد تسرق المشهد الساحر الذى يفضى الى حديقة هيروشيما التذكارية التى تقع بين نهرين: هوتوياسو وهونكاوا، وتبلغ مساحتها ١٢٢ ألف متر مربع بين «قبة القنبلة» فى الشمال وطريق السلام فى الجنوب. تلك القبة الحديدية تتوجّ المنزل الوحيد الذى تبقى من خراب المنطقة. قبل الحرب العالمية الثانية كان يعيش هنا حوالى ٢٦٠٠ شخص فى الحى التجارى. وكانت الشوارع ملأى بالناس الذين يشترون أو الذاهبين الى المسارح والمطاعم والفنادق. وعندما سقطت القنبلة اختفى كل اثر للحياة فى هذه الرقعة. وبعد الحرب تحولت الى حديقة تذكارية من أجل السلام.

قالت لى شيتوجوشى: هنا يقع المتحف الذى يضم بعض بقايا آثار القنبلة، ومجموعة من النصب التذكارية للضحايا الذين بلغوا ١٥٢٦٥٠ شخصاً نعرف اسماءهم الآن حسب احصاء السادس من اغسطس (أ ب) ١٩٨٨. وهناك رماد سبعون ألف ضحية على التّل التذكارى، وكذلك شعلة السلام التى لن تنطفئ الأ بعد تطهير العالم من الاسلحة النووية. وهناك النصب التذكارى لسلام الاطفال. تقول لى الفتاة: فى حوالى الثامنة والربع من صباح السادس من أغسطس (آ ب) كل عام يجتمع هنا عشرات الالوف من اليابانيين والأجانب. وفى المساء يحتشد الكثيرون وفى أيديهم الشموع.

كنا قد وصلنا قريباً جداً من «المكان» حين أيقنت ان الحديث قد انتشلنى من انتظار اللحظة التى سأواجه فيها «الحقيقة». نعم، لقد

مضت أربعة عقود واربع سنوات، ولكن الحقيقة لا تموت. لستُ الآن فى اليابان التى دُمِّرت مدينتان من مدنها، ولست الآن فى هيروشيما، وانما انا هناك فى قلب المكان الذى ألقت عليه الطائرة الاميركية من ارتفاع ۲۰۰۰ قدم أول قنبلة ذرية، لأول مرة فى تاريخ البشرية. فوق هذا المكان تماماً الذى أمشى عليه بقدميّ سقطت القنبلة التى ابرقت فى السماء وأرعدت الارض بزلزال لم تعرفه اليابان كلها على مدى تاريخها. تقول لى ياسوكو انها لم تكن بالطبع قد ولدت حين حدث ذلك، ولكنها تراه الى الأن حتى أنها ترفض دخول المتحف، تراه من الذكريات التى يمتلئ بها الهواء والتى يصرخ بها كل شبر من الأرض. طبعاً هذه هيروشيما اخرى التى ولدت فيها بعد زوال الانقاض وتشييد المبانى الحديثة. ولكن الانقاض البشرية لا تزال. لقد حكى الاجداد والاباء والامهات كل شئ، من انقذته الاعاجيب ومن شاء له سوء الطالع ان يعيش. هذه هيروشيما اخرى هيروشيما. الأولى لا تعرفها. كانت ولم تعد. تتنفس أفياءها وعرق اطفالها تتشممه دون أن تراه. الاطفال هم الضحايا، هم أول الضحايا. خشيت أن تبكى الفتاة. كانت شيتوجوشى ذات اعصاب أقوى، ولكنها لا تتكلم عن الماضى. اما ياسوكو فكانت ذات اعصاب هشّة، ومع ذلك تتكلم عن الماضى.

كان أول ما صادفنى فى الحديقة التذكارية هوهذا النّصب الذى يبدو كقوس مائل حاد، أو كأنه علامة النصر المقلوبة، فهو تذكار الاطفال

الذين قتلوا. أجمل ألوان الزهور تحيط بالنصب، ولكن ما هذه الثياب الجميلة الملقاة فوق بعضها البعض؟ تجيب شيتوجوشى: إنها الثياب التى يبعث بها الاطفال من جميع انحاء اليابان تذكيراً وتأكيداً على أنهم لم ينسوا اخوتهم شهداء القنبلة. كثيرة هى العائلات التى ترسل هذه الثياب بدلاً من الزهور. ولابد أن هذه التلال من الثياب تذهب بعد فترة لمن يحتاجون اليها، لان الهدايا تتجدد على مدار العام. أما هذا الصندوق الحجرى الذى يضم «كتب الماضى» فانه يشتمل على الأسماء التى عرفت لقتلى القنبلة. وهاهما بيتان من الشعر ينقلهما السيد عبد الجواد الى العربية فى وقت واحد مع ترجمة شيتوجوشى الى الانجليزية، فيكاد المعنى أن يكون هكذا:

دعهم يستريحون فى سلام

فإن الشر لن يتكرر

مسافة قصيرة يخطوها المرء بين النُصب الضخم الذى يجّسم ذكرى جميع الضحايا والتمثال الذى يجسّد ذكرى الاطفال، وخصوصاً ذكرى التلميذة الصغيرة التى عانت ويلات أحد الأمراض الذرية حتى ماتت. تستدعى انتباهك هذه الخضرة الهائلة. غابة من الالوان الخضراء الزاهية والقاتمة، ولكنها تبسط امامك بقعة هائلة من التشكيلات التى تبدو كالأبسطةوالسجاجيدوالهضاب. ولن تشعر بالوحدة، لا لأن معك هذه الرفقة الطيبة التى كانت معى، وانما لأن التماثيل المعبرة ستصاحبك طول

الوقت. هذه القبّة الخشبية تظلل جرساً هائلاً، هذه الفتاة تداعب ظبياً صغيراً، وهذه المعلمة التى تحمل تلميذاً قتيلاً أو مصاباً، بينما هذا الاب وهذه الام يحملان طفلا مستبشراً، وام اخرى تحمل طفلاً يغنى للسلام. وهذه الصخرة مهداة من بريطانيا، ومقتطعة من أعلى جبال اسكتلندا. وهذه ساعة البرج التذكارية، وهذا هو برج السلام.

أينما توجهت فى الحديقة الكبيرة ستجد دعوة حارة للسلام، وكان من الممكن تناسى الحرب أو تجاهل القنبلة، لولا انها المبرر اليابانى الوحيد للدعوة الى السلام. لذلك ستجد التماثيل والتذكارات كلها عملة ذات وجهين: الحرب والسلام، ليس هناك مكان آخر على ظهر الكرة الارضية يدعو الى السلام، كما هو الحال فى اليابان، لانه ليس هناك مكان آخر عرف القنبلة الذرية. ولكن هناك اسباباً اخرى قالها لى جارى فى الطائرة تاكاشى تسوشيا: السلام دعوة جديدة في بلادنا، قل انها فكرة جديدة أيضاً ومبدأ جديد. بلادنا عرفت الحروب طويلاً وكثيراً، نحن فى الأصل بلد حرب. لذلك فنحن لسنا فقط ضحايا، وإنما هناك تحت الجلد اليابانى شعور بالذنب. عواطفنا الدفينة شديدة التناقض. لقد منينا بهزيمة غير عادلة، هزيمة لا نستحقها، هزيمة ليست هزيمة .. صحيح ان الحرب خدعة، ولكن ليس الى هذه الدرجة غير الاخلاقية. هل تعرف الطعن فى الظهر؟ لقد طعنونا من الظهر ولم يواجهونا. والاً فإننا صمدنا أربع سنوات دون أن ننهزم. ولكن ضربة بيرل هاربر كما قلت لك كانت مغامرة عسكرية

وليست تخطيطاً حربياً، بينما كانت القنبلة الاميركية بكل ما تعنيه من شر، نهاية للحرب أقصد إنهاء للحرب، فما كان يمكن للحرب ان تستمر هكذا بلا نهاية. والحرب بالنسبة لنا - هل تسمعنى؟ - لم تكن داخل حدودنا. كانت خارج الحدود. اميركا ايضاً كانت تحارب خارج حدودها. ولكن خارج الحدود يعنى اننا نلعب فى أراضى الآخرين. هكذا تداخلت الفتوحات والدفاع عن النفس فى الحرب. هناك احساس يابانى بالذنب تجاه الشعوب التى فتحنا أراضيها بالقوة وأذقناها مرارة الاحتلال والتعذيب والتجويع. وهناك فى الوقت نفسه إحساس يابانى بالغدر واللاعدالة من جانب الاميركيين.

للحظات لم أتصور أن الذى يكلمنى بهذه الصراحة يابانى، وللحظات أخرى لم أتصور انه مدير بيع سيارات على هذه الدرجة من الفصاحة فى التعبير عن التاريخ. أضاف: لذلك فإن دعوتنا للسلام هى فى الحقيقة دعوة مركّبة. اننا نريد السلام للعالم كله، أى لتجارتنا كلها. ونريد السلام للشعوب التى هزمناها تكفيراً عن خطايانا. ونريد السلام لانفسنا لان شيئاً خارج الحساب، هو القنبلة الذرية، قد هزمنا ودمر فى لحظات أضعاف مادمرته الحرب فى سنوات.

كنت قد عبرت مع رفقائى الثلاثة مساحة هائلة من الخضرة حين وصلنا الى حافة نهر صغير. على الشاطئ الآخر هناك هذا البيت المتهالك العارى، لم تبق منه سوى بعض الأعمدة، تعلوه قبة من الحديد الفارغ

تسمى قبة القنبلة. هذا هو البيت الوحيد الباقى الذى حافظت عليه المدينة. وهو مهدد بالسقوط، ولذلك فباب الاكتتاب مفتوح للتبرعات الشعبية لصيانة هذا الاثر الوحيد الباقى من الماضى، من هيروشيما التى كانت.

بل هناك آثار اخرى قليلة ضمها هذا المتحف الذى ترفض ياسوكو أن تدخله معنا. قررت أن تنتظرنا فى الحديقة. وعلى باب المدخل الذى نشترى منه تذاكر المتحف كان هناك هذا المحل الخشبى الصغير الذى يبيع التذكارات المعدنية والصور والمجلات والكتب وكل ما يتصل بهيروشيما وكارثتها الذرية. وهذا «المحل» موجود مثله فى كل مكان وفى كل المدن، يتغير مضمون مبيعاته حسب تخصص المكان أو المدينة. إنك تصادفه على مدخل كل معبد وكل مسرح وكل كنيسة وكل معرض وكل متحف وكل حديقة كبرى وكل مكان أثرى وكل مبنى يضم شيئاً ذا قيمة. وهو شئ يختلف عن السوق التجارية للمدينة أو القرية أو الجبل أو الشاطئ، حيث تجد أشكالاً متنوعة من التماثيل أو اللوحات أو الرموز أو المصنوعات التى اشتهر بها المكان، وحيث يطبع اسم المكان على كل شئ بدءاً من الملابس والاوانى والحقائب والقداحات والعلب والصنادق والميداليات. وهى ليست تجارة يابانية، فهى ظاهرة سياحية فى كل مكان فى العالم. ولكن اليابانيين يمنحونها – فوق التجارة والسياحة – بعداً خاصاً بهم، فهم متخصصون مثلاً فى صناعة المراوح

والمظلات الزاهية الالوان، ورسوم الخشب التى تعتمد على النمنمات، وصناعة الحرير التى تشمل كافة اشكال النسيج من المناديل وربطات العنق الى الثياب الكاملة. لذلك فهم يدركون انك قد لا تشترى نموذجاً لمعبد أو تمثالاً لبوذا، ولكنهم واثقون من انك لن تبخل على نفسك بقطعة من الحرير أو من الخشب. وهكذا يركزون على الربط بين هذه الخامات وبين الافكار التى يجب أن تشحنها معك عن اليابان، وفى طليعتها قضية السلام. بالطبع لن تجد الرموز العالمية الشائعة للسلام، وإنما سيكون بانتظارك السلام اليابانى، أو المفهوم اليابانى للسلام.

ولم أدهش، لهذه الأسباب، أن أجد فى مدخل متحف هيروشيما هذا المحلّ الصغير وقد تصدّرته طفلة باسمة علّقت خلفها بعض حقائب القماش والكتب، طبع عليها اسم هيروشيما بأحرف واضحة. وأمامها هدايا مرتبة فى علب مغلفة جاهزة لمن يختار شيئاً مما عُلّق على الجدار. لم تكن الزهرة اليابانية الصغيرة تتكلم الانجليزية، ولكنها كانت تفهم ما أريد. غير أن السيد عبد الجواد خفّ الى نجدتى حين استطردت معها متسائلاً عما يكون هذا «السلام» المكتوب بحروف بارزة على كل شئ خلفها وامامها. قالت:

* إننى أحب السلام وأنشره بين الناس.

- انت تبيعين السلام، أليس كذلك؟

* ماذا تقصد؟

- أقصد أنك تبيعين اشياء كتب عليها السلام، يربح منها صاحب هذا المحل.

* لا. لا. إننا نربح طبعا. أنا تلميذة وأشتغل هنا أيضاً. ولكن السلام ليس بضاعة.

- اذن، فماذا يكون؟

* أن أنجح فى المدرسة، وأن يُشفى المريض فى المستشفى، وأن تثمر الزراعة فى الأرض، وأن يزيد الانتاج فى المصنع.

* فى اليابان فقط؟

* فى كل مكان.

- هل تسمعين أن هناك حروباً الآن فى بلاد اخرى؟

* لا. لقد انتهت الحرب وولد ابى.

- ماذا تقصدين؟

* انتهت الحرب فى العام نفسه الذى ولد فيه أبى. لم يكن من هيروشيما. وكان عمره خمسة وعشرين عاماً حين تزوج امى التى تصغره بخمس سنوات. فى البيت قالا لى ان الحرب انتهت من زمان، وفى المدرسة تأكدت مما قاله أبى وأمى. ليست هناك حرب. انها لن تعود. هكذا قال لى الجميع. اخى الاكبر فى صحة جيدة، ويدرس بنجاح فى المرحلة الثانوية. ولكنه يهوى الكمبيوتر. أما أنا فأحب عملى هنا، بعد اليوم الدراسى. لن تعود الحرب أبداً.

- الم يقل لك أحد أن هناك حروباً في بلاد اخرى؟

* لا

- هل تسمعين عن بلد اسمه فلسطين؟

* لا

- هل تعرفين مصر؟

* الفراعنة؟

- هل تعرفين افريقيا ؟

* وأوروبا والامريكتين واستراليا ووطني آسيا.

- وطنك ماذا ؟

* آسيا

- قلت آسيا

* نعم

- هل اليابان وطنك

* طبعاً

- وآسيا ايضاً

* طبعاً

- هل لك اكثر من وطن؟

* لا، انهما وطن واحد، اليابان هي أرض بلادي التي ولدت فيها.
وآسيا بلاد اكبر، هي الام لليابان وغير اليابان.

- مثل ماذا ؟

* كوريا والصين

- ماهو البلد الذى تعرفينه فى افريقيا ؟

* ...

- ماهو البلد الذى تعرفينه فى أوروبا ؟

* فرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا واليونان والسويد والنرويج و ..

- ماذا تعرفين عن هذه البلاد ؟

* بلاد راقية لا تعرف الحرب، إنها بلاد السلام، تصنع وتزرع، وتخترع وتكتشف واهلها يكتبون الشعر ويحبون الرقص والغناء ولا يعرفون الحروب.

- هل يكتبون الشعر فى افريقيا ؟

* ...

- هل يرقصون ويغنون فى افريقيا ؟

* لا أعرف، ولكنهم فى الولايات المتحدة يرقصون ويغنون، وعندهم موسيقى رائعة هى الجاز، هل تعرفها ؟

- هل زرت الولايات المتحدة ؟

* لا ، ولكنى سافعل حين تكتمل نقودى.

- ماذا يضم هذا المتحف؟

* بقايا من هيروشيما القديمة

- من آثار هيروشيما تقصدين؟

* نعم، وما الفرق؟

- كيف ضاعت هيروشيما القديمة؟

* كيف تسألنى بهذه الطريقة، إنها القنبلة

- القنبلة الاميركية؟

* القنابل لاجنسية لها سوى الحرب.

- ولكن من القى القنبلة على هيروشيما ؟

* كيف تسألني، انهم الاميركيون.

لا تتجاوز هذه الفتاة الثانية عشرة من عمرها ، وقد ارتبطت أجوبتها بابتسامة عذبة وشئ من الخجل الخفى والجرأة الظاهرية. حيرة قليلة تتبدى فى نظراتها التى تبحث عن شخص ما تستند اليه، وارتباك واضح فى انخفاض صوتها كأنه الهمس وارتفاعه فجأة كأنه الغضب أو الاستغاثة. كانت واثقة احياناً لدرجة الاعتداد بالنفس، وكانت تفقد الثقة أحياناً أخرى لدرجة الصمت. وفى جميع الاحوال لم تفارقنى صورتها أو صوتها منذ هممت بارتقاء السلم الى متحف الكارثة.

ربما كانت البانوراما هى أول ماشدّ انتباهى: مشهد تفصيلى هائل لهيروشيما بعد القنبلة. ومعروف أن البانورما صناعة آسيوية أو براعة آسيوية، فهى فن تخليد التاريخ الذى يحكى ويصور بالمجسمات دقائق ما حدث سواء أكان هذا الذى حدث ماضياً بعيداً أو قريباً، وسواء أكان

تاريخاً سياسياً أو حدثاً حضارياً. إنها الذاكرة الحيَّة التى لا ينطفئ مصابيحها، تعلّم الاجيال وتشهد على الوقائع كما جرت. اكثر من فن يشارك فى صنع البانوراما، وأكثر من علم. الهندسة المعمارية والصوت والنجارة والتلوين والكيمياء والنحت والتاريخ والتشجير والمساحة والطبيعة والملاحة والاجتماع. هذه البانوراما تجسم الصمت المطلق. تصمت انت أيضاً وتنحنى داخلك لجلال الموت. موت الوجود. هذا هو العدم. ثم ببطء بطيئ تتسلل اليك مشاعر مضطربة بالافكار واصوات مكبوتة ومقموعة فى الحصار. رويداً رويداً تقول أن ما تشعر به هو الفزع، أقصى درجات الرعب، ثم تتبيّن أنه الاشمئزاز والغثيان والقرف، ولكنك تعى أخيراً أنه الحزن الكامن فى طوايا الاعماق وقد تفجر بغتة وتناثر شظايا بل ذرات من دموع متجمدة كقطع من المرّ العفن القارص البرودة. بعد نظرة شاملة على البانوراما لن تفلت من التفاصيل المهلكة، وتشعر بأن أمعاءك تتقلص، وأن الوجع يكاد يخمد أنفاسك. ليست هذه هيروشيما اليابان وحدها. إنها هيروشيما فى كل مكان. وخاصة هذا المكان الذى فيه ولدت. هذا الوطن العربى الذى جربوا فيه كل أسلحة الهلاك من النابالم الى القنابل العنقودية والفراغية، من السويس الى بيروت الى تونس. هيروشيما فى كل مكان، والصغيرة اليابانية لا تدرى أن فى العالم حروباً أخرى لا تزال. لم تسمع عن «بحر البقر» فى مصر، وعن أطفال «الحجارة» فى فلسطين. هيروشيما فى كل مكان. هذه رأس

«جيزو» من الحجر المصمت وقد أتلفت الاشعاعات ملامح الوجه كأنه وجه بشري، وهذه الاسطوانات الضخمة قد انصهرت من درجة الحرارة وهي على مبعدة ٣٥٠٠ متر من مركز المدينة الذى ألقيت فوقه القنبلة. حتى النباتات الخضراء اليانعة احترقت، وقد تركت الأشعة بصمات الثياب على الاجساد التى فازت بالموت البطئ. هذه الرؤوس وتلك الأرجل والاقدام كأنها انجذبت بقدرة طاغية الى قاع البركان ثم خرجت على هذا النحو الكابوسى كأن عين ميدوزا الساحرة الشريرة فى الاساطير اليونانية قد وقعت على كائن فلم تكتف بقتله، بل مثلت بجثث البشر والحجر والنبات والحيوان والحشرات. عندما تشاهد الزجاجات أو جذوع الاشجار أو قضبان السكة الحديدية أو قماش الثوب، وكيف حولتها الاشعاعات الى كائنات خرافية، فانك تكاد تسمع صوت الحجر وأنين الشجر كأنه نواح الموتى من البشر، ليس الكسر أو التفتت أو التمزق هو الذى يلفت نظرك وسمعك، وإنما هذا «التشوه البشرى» الذى يطالعك فى الكوب أو الزجاجة أو الاناء كأنه مذبوح والدماء تلطخ شكله بالثقوب والبثور والتليّف والانكماش المفزع والتمدد الشيطانى. وتوقن أنك أمام أجساد، لا يهم من أى مواد تكونت وعلى أن شكل كانت، بل يحتويك الرعب وتأخذك الكارثة التى نفخت فى أساطير الشر فإذا بها تقفز من المخيلة والكتب وجدران الآثار القديمة لتنتصب أمامك جحيماً واسع الفمْ تطولك أنيابه فيسرق وعيك ويلفظ عظامك التى تكتب على جدران المتحف:

الشر، الشيطان، اليأس.

ولكنك تخرج بصعوبة من هذا الحيِّز الصغير نسبياً وتتوجه الى القاعة التذكارية، وفيها تسجيل وثائقى دقيق لمأساة هيروشيما. هنا يتحول البشر الى ارقام، والسلام الى أوراق، وخرائب الروح الى صور وابتسامات، ودمار الكون الى الهامات للرسامين والشعراء. هنا تسمع الموسيقى تعزف لحناً آخر، وتهيئ نفسك من جديد لتأملات مغايرة.

يقول لك اليابانيون: دعك من الارقام الرسمية فقد مات اكثر من مائتى الف والخسائر غير البشرية لا تقدر بثمن، لذلك نحن نريد السلام بأى ثمن. وأحياناً يكرر اليابانى هذه العبارة وهو ينظر في عينيك بتصميم قائلاً كأنه يحفظ درساً: بأى ثمن.

أليس غريباً أن بلد الزلازل والبراكين والعواصف والاعاصير يتكلم عن «القنبلة» بكل هذا الخوف حتى انه اختزل صلاته فى كلمة واحدة هى السلام؟ إن المتحف فى النهاية متحف، فالحياة أولاً وأخيراً تختلف. ولابد أن الكارثة كانت اكبر من كل هذا الذى أمكن انقاذه من الفناء. بل إن العدد القليل من المعروضات فى هذا الحيِّز الصغير نسبياً، يؤكد عكسياً أن القنبلة والاشعاعات أتت على كل شئ، ولم يبق سوى هذه الأشباح والظلال. ومع ذلك - رحت أقول لنفسى - فإن ما جرى لوطننا العربى منذ عام ١٩٤٨ الى حرب السويس عام ١٩٥٦ الى كارثة ١٩٦٧ وما تخلل هذه المرحلة التى تزيد عن الأربعين عاماً من العدوان

المستمر، خارج ميادين القتال، على بحر البقر وأبو زعبل ومجمع حمادى وحمام الشط وصبرا وشاتيلا، يحتاج الى عدة متاحف لا الى متحف واحد، أضعاف اضعاف متحف هيروشيما. من كفر قاسم وديرياسين الى بورسعيد، اين هى المتاحف العربية التى يمكن أن تمتلئ بأضعاف أضعاف ما يضمه متحف هيروشيما؟ هل احتفظ أحد بثياب اطفال بحر البقر وكراساتهم وثياب عمّال مصنع ابو زعبل؟ ماذا تبقى من نساء ورجال وأطفال ومدارس ومزارع ومصانع وبيوت الجنوب اللبنانى ومن حصار بيروت؟ هل فكر أحد فى أن يحتفظ بكل متعلقات سناء محيدلى وبقية رفاقها ورفيقاتها من السابقين واللاحقين؟ هل افكر أحد فى أن الأجيال العربية القادمة تحتاج لذاكرة الامة، وأن العالم يحتاج الى «ضمير» لا ينسى؟

لقد أدرك اليابانيون الذين يملكون أقل القليل مما نملكه أهمية «الذاكرة» التى تحفظ للاجيال تاريخها وللعالم ضميره.

إن أحداً وهو يزور متحف هيروشيما لا يفكر من كان على خطأ ومن كان على صواب فالحرب حرب، وكل الأسلحة مشروعة ومشرعة فى ساحة القتال. والمدارس اليابانية والجامعات تبعث بتلاميذها وطلابها - طول العام - الى هيروشيما ومتحفها فى رحلات لا تنقطع. بل إننى لاحظت أن عدد اليابانيين الذين يزورون المتحف اكبر بكثير من عدد السيّاح الاجانب. ولاحظت أيضاً أن اليابانى يقرأ الصور ويتأمل طويلاً ويسجل تأملاته فى مفكرة صغيرة، أما السائح فهو يلتقط الصوروير

على المعروضات كأنها مجرد لوحات أو تماثيل لأحد الفنانين.

سائح واحد فقط وجدته يطيل التحديق فى كل ما يراه، ويحرص على السؤال اذا اعترضته مشكلة أو صعوبة فى الفهم. كان شاباً فرنسياً، رأيته يحاول أن يستوقف سيدة يابانية، ولكنها مضت فى طريقها، قلت له: إسأل شيتوجوشى ماذا تريد؟ قال: هل تشعر بالحزن لما حدث منذ أربعين عاماً؟ وأجابت الفتاة: لا أريد لليابان ان تشعر بالحزن بعد أربعين عاماً أخرى. كانت هذه هى المرة الأولى التى تتكلم فيها عن هيروشيما.

وعندما هبطنا الدرج كانت ياسوكو تنتظرنا وقد استعدت لوداعى بزجاجة من «الساكى» المشروب الوطنى اليابانى. قالت: إنه ليس أجود الانواع، ولكنه النوع اليابانى الوحيد هنا.

الفصل الثالث

الخصوصية الاجتماعية

(١)

لابد أن تشعر بانك فى مجتمع خاص بمجرد أن تعيش أياماً قليلة فى اليابان. أى أنك قد لا تشعر بفروق حاسمة بين باريس وروما ولندن، ولكنك تشعر بالخصوصية الاوروبية فى كل منها بتنويعات مختلفة. أوروبا هى التى تشعرك بالتميز وليست بلداً بالذات. وبالطبع حين تتعمق الامور مع طول فترة الاقامة سوف تكتشف بالتدريج أن فرنسا تختلف عن ايطاليا وهذه تختلف عن اسبانيا. أما اليابان فانت لا تحتاج لوقت طويل لتكتشف انك فى مجتمع خاص جداً. قد لا تلمس الفروق لمس اليد بين القاهرة ودمشق وبغداد أو بين الدار البيضاء ووهران وتونس، ولكنك تلمس على الفور الخصوصية العربية فيها جميعاً.

اليابان بلد آسيوى، ولكنك سوف تكتشف الخصوصية اليابانية أولاً

قبل اكتشافك للخصوصية الآسيوية. أى أنه بينما فى العالم كله تكتشف العام قبل الخاص فإن اليابان على العكس من ذلك تمنحك نفسها المباشرة قبل أن تعرّفك بانتماءاتها القريبة والبعيدة: الحضارة الصينية، القارة الآسيوية، الحداثة الغربية. ستجد اليابانى أو اليابانية. ما أن يعرف انك اجنبى حتى يحيطك علماً بكافة الوسائل انك فى اليابان. نعم، اليابان فى آسيا، ونعم اليابان غربية الهوى، ولكنك أولاً انت فى اليابان. حتى الانجليزية الرديئة التى يتكلم بها سائق التاكسى تذكرك انك فى بلد يعرف هذه اللغة مضطراً، فهو يدرك ويكبت مشاعره انك بالتأكيد لا تعرف اليابانية. ولكنه لا يبذل جهداً أكبر لتجويد هذه الانجليزية الركيكة، فهو على خلاف ابناء العالم الثالث، لا يشعر بالزهو انه يتكلم لغة اجنبية. وهو لا ينسى، مهما كان مستواه الثقافى أن لغته الشديدة الصعوبة والتعقيد قد استوعبت اعقد منجزات التعامل التكنولوجى الحديث. ان اللغة اليابانية التى تشبه احرفها الابجدية الصينية وتشبه اصواتها الابجدية التايلاندية وتشبه انساقها اللغة الكورية، تنفرد بنظام خاص للنحو والصرف ينعكس على النطق والكتابة لا نظير لهما فى اية لغة آسيوية قريبة أو بعيدة. وبالرغم من الاختراق الاميركى فى الاعلام والتعليم، لم تستطع الانجليزية أن تؤثر على اللغة اليابانية فى آى مستوى أو مجال .. كما فعلت مثلاً فى الهند أو الفلبين.

ولكن المستويات الثقافية والسياسية الرفيعة المستوى تجيد الانجليزية التى لا تخلو من اللكنة اليابانية اجادة طيبة للغاية. بل ان اللكنة اليابانية تكسب الانجليزية فى هذه الحال ايقاعاً جذاباً. غير أن خصوصية المجتمع اليابانى ليست فقط خصوصية لغوية. ولكن اللغة هى المدخل الطبيعى الى هذه الخصوصية.

واللغة ليست هى الابجدية وحدها، فهناك لغة أخرى لا تقل شعبية وشديدة الانتشار هى لغة الاشارة ... بدءاً من الانحناءة التى ترحب بك، وهى أولى علامات التهذيب اليابانى. وهو ليس تهذيباً ملفقاً. ربما تحول مع الزمن الى عادة غير متعمدة أقرب الى رد الفعل التلقائى. ولكن هذه التلقائية أو حتى الآلية لا تبتعد عن الصدق فى التعبير. ان اليابانيين لا يعرفون المصافحة بالايدى، ولأول وهلة مازالوا يستغربونها. لذلك، فإن الانحناء المبالغ فيه احياناً هو الشكل الامثل للتحية والاحترام معاً.

وبالطبع فهذه العادة جزء من منظومة اجتماعية تبدأ من الولادة وتنتهى بالموت. وهى منظومة تقليدية متوارثة. ولكن اليابانيين حريصون على التمسك بها. وهم يضعون امامك - اذا كنت غريباً - الشوكة والملعقة والسكين على مائدة الطعام. وهم لا يضيقون فرعاً بالمائدة المرتفعة وحولها المقاعد. ولا يكبتون غيظاً اذا فضلت الطعام الغربى على طعامهم. ولكنهم سيكونون سعداء اذا تعلمت بسرعه تناول الطعام بواسطة الاعواد الخشبية، واذا لم تتبرم من افتراش الأرض حول

«طبلية» مستطيلة منخفضة، وقد تضع خلفك وتحتك الوسائد، ولكنك ستخلع حذاءك عند العتبة. وحذار أن تتصور أن هذا فولكلور، لأن الطعام الذى أمامك وأسلوب طهية أبعد ما يكون عن الفو لكلور. فضلاً عن أنه من المتعذر عليهم ممارسة اللعب الفولكلورى أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. انهم يطبخون امامك، بل انت الذى تطبخ طعامك، فى هذا الماء المغلى تسلق شرائح اللحم وما يشبه الجبن المصنوع من شئ ما يشبه البطاطا، وتلقى ايضاً بالخضرة فى الماء المغلى وتلتقط هذا كله وتغمسه فى الزيت والثوم والبصل. وعليك أن تشرب قبل ذلك أو بعده الشاى الساخن أو المثلج والشوربة الساخنة أو المثلجة والقهوة الساخنة أو المثلجة. وأنت تستطيع أن تأكل الأرز بمختلف الاشكال فى طبق أو ملفوفاً فى نوع من الخضرة.وقد تستغرب مذاق هذا كله، ولكنك سوف تستطيب الطعام مع «الساكى» هذا المشروب الوطنى الذى ينسيك بعد الكأس الثالثة اين انت.

وسينسيك ما هو أهم، هذا الصوت المسموع فى مضغ الطعام، ولأن الجميع يفعلون ذلك فإنه ليس مراً غريباً. وهناك سبب أهم: هذا الصوت العالي والضحك المتواصل. مالا يعرفه الكثيرون عن اليابانيين انهم قوم شديد و الجدية والوقار فى العمل فقط، ولكن الوجه الآخر للعملة هو هذا التزاحم على المطاعم والبارات وماجلس الانس والفرفشة فى المساء. اليابانى «يفرقع» النكتة ولا يقولها. والجميع يفعلون ذلك فى وقت

واحد، حتى انك اذا كنت اجنبياً مثلى لن تعرف من أضحك من. كانت المرافقة اليابانية تترجم لى أحياناً بعض هذه النكات، ولكنى لا أكاد انتهى من الضحكة حتى تكون عشرات النكات قد فاتتنى. قالت لى تاكا هاشى يومى أن هناك عشرات المجلات الهزلية الساخرة فى اليابان. واخبرتنى أن هناك عشرات المجلات الخاصة بالكاريكاتير. وقد اعطتنى بعض هذه النماذج. ولم أكن احتاج الى «مترجم» للنكتة. كانت الرسوم ذاتها ضاحكة. وليس من مقدسات فى عالم الكاريكاتير، فكل شئ قابل للسخرية. النكتة فى مصر جريدة سرية، لذلك فهى تؤرخ للضمير الشعبى دون مؤاخذة القانون. اما فى اليابان فهى جريدة علنية. ونحن نقول: لاحياء فى العلم. وهم يقولون لاحياء فى النكتة. كل شخصية عامة معرضة للسخرية. كل عادة اجتماعية معرضة للسخرية. كل الحياة الشخصية والعامة لاى كبير أو صغير معرضة للنقد الهزلى الحريف. واليابانيون ليسوا محرومين من الأحزاب والنقابات والصحافة الحرة، فهم لا يعانون من الكبت السياسى أو الأجتماعى. ولكن المنبر الرئيسى للنقد والسخرية هو المطعم والبار والكافيتريا. وهم يكثرون من ارتياد المطاعم والبارات. اما زيارة بيوت بعضهم البعض فهى نادرة. السهر والسمر خارج البيوت. وهى ليست سهرات رجالية فقط، فلكل رجل «شارع خلفى» فهو يستمتع بحياته كما يشاء. ولكن لا علاقة لذلك بالنمط الغربى الذى نسميه حرية الفرد أو حرية المرأة أوالحرية الجنسية.

لا علاقة للياباني بهذه المفاهيم او التصورات. ولا علاقة له أيضاً بالمفاهيم التي اصطلحنا على تسميتها بالمفاهيم الشرقية. للغربي وجه واحد يدعوه الحرية الفردية. وللشرقي أو العربي وجه وقناع، فهو غالباً يقول غير ما يفعل، يقدس مبادئ المنع والقمع علنا وينتهكها اذا استطاع سراً. اما الياباني فليس غربياً ولا شرقياً. له وجهان لا يتناقض في وعيه احدهما مع الآخر، ولا يخفي احدهما الآخر، ولا يحتاج لستر الأول واعلان الاخر. الوجه الأول هو العمل. الوجه الثاني هو اللهو، ولا اقول المتعة. لانه يجد متعته على نحو ما في العمل، وعلى نحو آخر في اللهو. ليس اللهو سراً. انه «عرف» أو ميثاق اجتماعي غير مكتوب. ليست هناك فضائح في هذا السياق الا الفضائح «الطبقية». الخروج على الانتماء الطبقي ممنوع «عرفا». هذه هي الفضيحة، الأ يكون هناك تكافؤ طبقي بين الرجل والمرأة سواء أدت العلاقة بينهما الى الزواج أولم تؤد. ان مفهوم الشرف الذي تمخضت عنه سيره الساموراي يتجسد في قيمتين حاسمتين هما: الصدق والولاء. لذلك كان «الكذب» هو الفضيحة الثانية: ليس الكذب في التعامل بالأوراق الرسّمية، وإنما الكذب الاجتماعي. وفي علاقة الرجل بالمرأة هو الكذب على الزوجة أو العشيقة. وهناك قبول عام «للعلاقة» دون أن يجعل منها المجتمع قضية للمناقشة. انها «أمر واقع» لا محاسبة عليه، ولكن دون تقنين أو صياغة لحرية الفرد أو حرية المرأة أو حرية الجنس، ودون الحاجة الى قناع يفضي

الى الازدواجية الشخصية.

لا تعرف الشخصية اليابانية هذا الازدواج، ولا تعرف التناقض الداخلى، الاّ أن هذا لا يعنى انها شخصية بسيطة. اليابانى شخصية منسجمة لا تعرف الصراع حقاً، ولكنه شخصية مركّبة من عناصر غاية فى التعارض اذا وضعت جنباً الى جنب: إنه يولد فيذهب به أبواه الى المعبد، ويتزوج فيرتدى ثياباً شبه كهنوتيه اذا كان العريس، والكيمونو المتعدد المراتب اذا كانت العروس، والكيمونو الملّون للفتيات غير المتزوجات، والكيمونو الاسود للسيدات المتزوجات. وهو ينام على فرشة فوق الأرض غالباً، ويأكل الطعام التقليدى، وحين يموت يحرق جثمانه ويذر رماده فى الماء أو الغابة. وهو الأول بين بنى البشر فى أكل السمك والأرز وصيد اللآلئ، لانه ابن البحر. حياة تقليدية من الميلاد الى الموت. ولكن هذه الحياة مجرد مستوى بين مستويات عدّة للحياة الاشمل فى الحقل والمزرعة والمكتب والمصنع والجامعة. وفى كتابها عن «المجتمع اليابانى» (الطبعة الانجليزية الخامسة ١٩٨٩ منشورات تاتل - طوكيو) تقول شيى ناكان استاذة الانثربولوجيا الاجتماعية بجامعة طوكيو أن أفضل مكافأة لمن أحسن عملا فى اليابان هو الثناء الذى يقدمه له زملاؤه، وخاصة من رئيسه. ان شعوره بأهميته يتضاعف حين تؤكد له الجماعة ورئيسها انه قد احسن صنعاً. بهذه الاشارة تؤكد الاستاذه اليابانية على ظاهرتين متلازمتين هما: ان الفرد اليابانى وهو

يحقق ذاته من خلال الجماعة، فإنه لا يتخلى عن الالتزام الاخلاقى والانضباط التراتبى. لذلك لا تكون المكافأة التى يفرح بها هى النقود، وإنما الاعتراف الجماعى وثناء الرئيس.

لذلك تضيف الباحثة اليابانية ان الحرية الفردية التى يفهمها اليابانى هى التى تؤدي الى «الاجماع» في اتخاذ القرار. أى الديموقراطية التى يليها الالتزام، فالجماعة وليس الفرد مصدر الشرعية. والهرم الاجتماعى هو مجموعة من القيم والعلاقات وليس الاشخاص فقط، ومن ثم فالطريق الى الحرية الفردية عند اليابانى هى البحث عن مكانه فى صفوف الجماعة والبنية الهرمية. وفى هذا الاطار سوف يأتى بالمعجزات. (ص ٨٦).

وتستشهد ناكان بكلمات مدير يابانى لاحدى الشركات جاء فيها ان هناك احساساً جماعياً لدى العمال اليابانيين، أى أن المبادرات الفردية تنطلق اصلاً من الشعور المشترك بأن هذه الخطة أو تلك اصلح للعمل. اما اذا حدث وغاب هذا الشعور لاى سبب فإن النتيجة تساوى صفراً «ان الشركة فى ظل علاقات انسانية طيبة تحصل على المبادرات وتنجح فى العمل» (ص ٨٧).

وقد كنت حريصاً فى كل زيارة لاحدى المدن اليابانية ان اختار احد الاشخاص بشكل عشوائى لأختبر بواسطته أحد الانطباعات التى التصقت بمخيلتى، ففى طوكيو سألت عاملة تنظيف الغرفة عما اذا كانت

سعيدة فى حياتها. ابتسمت وأحنت رأسها بما يعنى الايجاب. قلت لها: ماذا عن العمل؟ اجابت: انهم يعاملوننى معاملة جيدة. وظننت أنها تقصد ادارة الفندق، ولكنها اوضحت لى أنها تقصد زميلاتها وزملائها. سألتها عمن يكون أفضل صاحب تعامل معها، فأجابت أنه المسؤول عن الطابق. ولما استفسرت عن مدير الفندق اجابت أنها لا تراه ولا تعرفه «ولكن من المؤكد انه رجل طيب». أضافت انها تحصل على أجر معقول، وأنها ليست متزوجة، ولكنها لا تعول أحداً. انها تسكن مع احدى العائلات، وتؤدى بعض الأعمال لهذه العائلة، فأسرتها تقطن احدى المناطق الجبلية البعيدة عن العاصمة، وهى تأكل فى الفندق وفى بيت الاسرة، ولا تكاد تنفق الكثير من أجرها. وهى تقرأ وتكتب ولكنها لم تحصل على شهادة دراسية ذات قيمة. تستهويها مجلات الكاريكاتير وتعشق السينما عشقاً، وبالذات الافلام الاميركية. تبلغ ثلاثين عاماً من العمر، وتستخدم العطر اليابانى وتلبس الثياب اليابانية من القماش اليابانى والمصنوعة فى اليابان. لها صديقات من زميلاتها فى الفندق. وفى حياتها قصة حب منذ عشر سنوات، ولكن الرجل اختفى ذات يوم، ولم يعد. والأرجح انه ارتحل للعمل فى مكان آخر. انها تحفظ ذكراه وتتمنى لو انها رأته صدفة، فربما يتزوجان.

فى محطة كيوتو كنت والمرافق المصرى - طالب الجامعة السيد عبد الجواد - ننتظر على الرصيف القطار الذى يتجه الى هيروشيما. وكان

هناك حشد من الرجال والنساء والشباب يحيطون بعروسين ارتدى كلاهما ثيابا عادية. كان الجميع يهتفون بكلمات او اناشيد موقعه، وبعض الشباب يقفزون ويتضاحكون. والعروسان واقفان ينتظران قطاراً آخر، يمسكان بحقيبة أو أكثر، ويحملان الهدايا والزهور وقد لف الاهل والاصدقاء حول عنق كل منهما اكليلاً زخرفياً من الورد والورق الملون. كانت آلات التصوير تعمل بنشاط، وبعض الفتيات ارتدين الكيمونو الملون. ولكن الاغلبية الساحقة كانت ترتدى القمصان والبنطلونات والبلوزات والتايورات والفساتين، وقد حملت بعض السيدات المراوح المزخرفة أو حقائب الجلد الزاهية، واذا بالعروس تبكى قبل أن تضع قدمها فى القطار، بينما العريس يضحك من «شغب» أحد زملائه. وبعد أن تحرك القطار شاغبتُ هذا الشاب صديق العريس، وقد توسمت فيه خفة الظل. انه مهندس فى شركة يابانية سألته :

- لماذا بكت العروس؟

* انها تودع اهلها.

- هل تزوجت رغماً عنها ؟

* بالعكس تماماً، انها تحب زوجها.

- هل انت متزوج؟

* كلا، ولكنى ارغب فى ذلك.

- هل لك صديقة؟

* ربما نعم، وربما لا.

- كيف كان ذلك؟

* اى أنها صديقتى احياناً وليس كل الوقت.

- لا تؤاخذنى، اريد أن أفهم اكثر

* لا مانع، ولكن هل انت باحث اجتماعى، من أين جئت؟

- من مصر.

* أه .. الفراعنة؟

* سمعت مرة من التلفزيون قبل وفاة الامبراطور بقليل اننا انجزنا بناء مركز ثقافى لكم.

- نعم، هذا صحيح، فى أى فرع من الهندسة تخصصت؟

* الكترونيات البواخر التجارية.

- كم تتقاضى مرتباً شهرياً؟

* خمسمائة الف ين (= حوالى ٣٥٠٠ دولار امريكى).

- تعمل منذ كم سنة؟

* سبع سنوات

- ماذا تقرأ؟

* الصحف أم الكتب؟

- كلاهما؟

* أقرأ الصحف والروايات البوليسية والابحاث الالكترونية.

- تشاهد السينما ؟

* مرة كل اسبوع مع الاصدقاء، ثم نكمل السهرة في احد المطاعم

- هل حصلت على أي جائزة؟

* حفلات اصدقائي في عيد ميلادي أفضل من الجوائز.

وكان قطاري قد وصل، فانقطع الحديث.

ولكن ملاحظاتي حول توديع العروسين كانت كثيرة، فهناك اصرار على توصيلهما الى محطة القطار. وهو اصرار جماعي، وأقرب الى المظاهرة الحية. والعروس وحدها هي التي بكت وليس والداها. انها لن تسافر الى الخارج، بل الى مدينة أخرى. وهو مشهد قريب مما كنا نلاحظه في مصر الى وقت قريب قبل عصر البترول، حيث الانتقال الى بلد آخر يعتبر نوعاً من الاغتراب. كذلك فالعروسان يستقلان القطار ويرتديان ثيابا عادية، فالعرس أو الزفاف لا يعني الانفاق بلا حدود على مظاهر الترف في اختيار الثياب ووسائل المواصلات. عقود من الزهور ورقصات على الرصيف تكفي.

ولكنني حين قابلت تاكوجي يوشيوكا Takuji Yoshioka المدير العام لشركة الكهرباء في يوكوها ما Yokohama لم أجد، بالطبع هذا الاكتفاء. كانت المناسبة هي هذا المعرض المثير للحياة في القرن المقبل. وكانت الطوابير توحي باننا سنبقى على قائمة الانتظار لوقت طويل. ولكن يُومي المرافقة الذكية فاجأتني بأنها تعرف شخصاً هاماً هنا، وهو

يستطيع أن يحمينا من الانتظار الطويل. وفعلاً أقبل علينا بعد لحظات شاب شديد الاناقة والتهذيب، ودعانا أولاً الى المرطبات. وفى لباقة تبدو عفوية فى الظاهر ولكنها مرسومة بدقة قال لى انه كان قريباً من مشروع المركز الثقافى الذى أهدته اليابان لمصر. قلت له: هل تقصد الأوبرا؟ أجابنى: لماذا تحرصون على تسميته كذلك. إنه ليس أوبرا لعدة أسباب، أولها ان الاوبرا فن مستقل بذاته ابتكره الغربيون. وليس من المعقول ان نهديكم عملاً غير يابانى. ثانياً، للاوبرا مواصفات معمارية معروفة، والبناء الذى انجزناه لمصر لا علاقة بهذه المواصفات. لقد قدمنا لكم بالفعل مركزاً ثقافياً تتعدد فيه الانشطة، كالمسرح والمكتبة وقاعة المحاضرات والمعرض، وغير ذلك، فهو أقرب الى مركز بوبور فى باريس ولا يمت بصلة قرابة الى اوبرا باريس القديمة او الجديدة. قلت له: ربما كنت على حق، فالمبنى اكثر شمولاً من أن يكون داراً للاوبرا. ولكنى استبعد ان يكون قريننا لمركز بوبور، ولو على سبيل التشبيه، فالمركز الفرنسى يضم مكتبة سينمائية وموسيقية وارشيفاً تلفزيونياً وداراً للكتب والميكروفيلم ومتحفاً ثابتا ومتغيراً بحيث انه بات بلا نظير فى العالم. ولا علاقة له بالمركز الثقافى الذى اهديتموه لنا. ونحن فى مصر نشكركم.

ثم جاء أوان «الفرجة» على القرن المقبل من خلال هذه البانوراما الهائلة والمجسمات التلفزيونية والسينمائية التى تحكى لنا بمختلف وسائل الابهار ما سوف يحدث غداً فى الفضاء وعلى الأرض وفى البحار. كانت

طوابير الاطفال هى الاكثر طولاً فسألت تاكيوجى يوشيوكا: هؤلاء هم الذين سيحصدون ثمرة هذا التطور المدهش. ابتسم وهو يجيب: هذا خيالنا نحن الآن، وهو خيال قيد التحقيق، ولكن من يدرى أن يعيش هذا الخيال اكثر من عشر سنوات؟ ربما نشارف القرن الحادى و العشرين، وقد تبدل الخيال البشرى واصبح هذا الذى يدهشنا سقيماً. وليس المهم ما توصلنا اليه، فالأهم أن كل جديد يغّير بدوره من معدلات التطور. الكاميرا الجديدة مثلاً لا تعنى تطوراً نحو صورة اكثر وضوحاً أو تصويراً أكثر دقة، وإنما تعنى أيضاً أن امكانية تغييرها الى الاكثر كمالاً لم تعد تحتاج الى الوقت المفترض سابقا. التجديد نفسه يفرض زمنا جديداً من شأنه ان يطرح احتمالات لم تكن تخطر على بالنا. اى انه يمنحنا خيالاً لم يكن لنا. فى السابق كانت العدسة تشحن المخيلة بأحلام التقريب والتبعيد والتصغير والتكبير، أما الكاميرا التى تعمل الآن، كلها أوتوماتيكيا، فإنها تغير من موازين الحركة. لذلك فما نظنه الآن من المعجزات قد يبدو غداً قديماً حتى لا اقول عقيما.

كان يتكلم بتدفق وحماس، وكنا قد خرجنا من القاعة المظلمة وخلعنا عن عيوننا النظارات التى كانت تكبّر المشهد السينمائى وتدفع به من الشاشة الى وجوهنا. وها نحن الآن فى الصالون من جديد اقول له: كيف يؤثر هذا التطور على البشر؟ اجاب وهو ما يزال يبتسم: ان توفير الزمن يمنح الانسان مزيداً من الوقت للمتعة، والتقدم التكنولوجى هو

تقدم للصناعة والزراعة والتجارة والصحة والتعليم. وهذه كلها تفيد الانسان. وهى تفيد بلادنا كما تفيد غيرنا. اننا ننفق ونخترع للحياة السلمية وليس للحياة العسكرية، أى لفائدة البشر. قلت له: سأكرر سؤالى بطريقة أخرى، اننى اعرف ان الفرد اليابانى هو الأطول عمراً فى البشرية المعاصرة، وأعرف ايضاً ان الجريمة فى اليابان تحتل أسفل القائمة العالمية، وأعرف أخيراً ان الدخل القومى ودخل الفرد يرتفع من عام الى آخر .. فهل تظن ان التكنولوجيا هى السبب؟ واذا كان ذلك صحيحاً فكيف ترى المستقبل؟ وهل ترى تلازماً بين التقدم المادى والثقافة؟ اقصد ما هى انعكاسات هذا التطور وسرعة معدلاته على السلوك الاجتماعى والعلاقات الاجتماعية والقيم؟ ابتسم قائلاً فى كلمات قليلة: هذه أسئلة صعبة، استطيع فقط أن أقول أن مكتشفات القرن المقبل ستحقق الفائدة للجميع أى السعادة.

وأخذت أفكر ما العلاقة حقاً بين المنفعة والسعادة؟ وفى كيوتو كما فى نارا وجدت الفتيان والفتيات يضعون ايديهم فى ماء السعادة عند المعابد. إناء ضخم دائرى يعلوه تمثال، والماء يغسل الشقاء أو يطهر القلوب. والناس يأخذون أوراقاً صغيرة معلقة على أحد السواتر ويكتبون فيها ما يتمنون وقوعه فى العام المقبل. سألت الرجل العجوز: هل معنى ذلك أنك تؤمن بالغيبيات، أى أن هناك مسائل خارج ادراكنا يمكن أن تحدث؟ قال: لا أدرى ماذا تقصد بالغيبيات، ولكن هناك مسائل

خارج ادراكنا تحدث باستمرار، وكلما أوشكنا على المعرفة وقعنا في الجهل، هناك الكثير مما نجهله. قلت له: ولكن هذه الكلمات التى كتبتها ألا تعنى انها رسالة الى قوى مجهولة؟ فغرفاه وهو يحملق في وجهى: لست أدرى ماذا تعنى بالقوى المجهولة. هناك أشياء تحدث لا تفسير لها الآن، وقد يجدون لها تفسيراً لها في الغد، ولكنهم حينئذ سوف يكتشفون أموراً جديدة بلا تفسير. نحن في هذه الأوراق التى نكتبها ونتركها هنا نتمنى السعادة كالشفاء من مرض أو كتحقيق رغبة في النجاح. وهى ليست رسالة إلى أى كائن مجهول أو معروف، وإنما هى مجرد أمنية. قلت له: في بلادنا بعض الاولياء أو القديسين الذين يكتب لهم الناس شكاوى أو امنيات في رسائل. أجاب: ليس لدينا هؤلاء الاولياء. قلت له: ولكنك تؤمن بالقدر؟ هز رأسه قليلاً وتمتم: القدر، نعم، ولكن القدر ليس مؤامرة من المجهول، وهو أيضاً ليس صدفة. إنه ببساطة وقوع مالا نتوقعه. فنحن قد نتنبأ بحالة الجو أو بحالة المحصول أو بحالة الانتاج. ونستطيع الآن بواسطة الاحصاءات الدقيقة أن نتنبأ بحالة النسل والصحة والاسعار. ومع ذلك فهناك أشياء كثيرة تستعصى على التنبؤ في الوقت الحاضر، وعندما نفاجأ بحدوثها نقول القدر. القدر جزء من الطبيعة التى نحن منها.

كانت هناك فتاة صغيرة تضع يديها في «الماء المقدس»، سألتها: لماذا تغسلين يديك هنا؟ قالت وهى تضحك: لأن زميلاتى يفعلن ذلك،

ولان أبى وأمى يفعلانه أيضاً، ولأننا حين نأتى الى هذا المكان يجب الا ننسى ذلك. سألتها: بماذا تشعرين ويداك فى الماء؟ انتظرت قليلاً ثم قالت: لاشئ سوى مأنى مثل الجميع. سألتها من جديد: هل تشعرين بالراحة أو الاطمئنان أو السعادة؟ أجابت: اشعر بما اشعر به اثناء اللعب أو ممارسة الرياضة. قلت: هل هذا الماء مقدس؟ واكتشفت انها تسمع هذه الصفة للمرة الأولى، فأردفت: هل هذا الماء مقدس لأن روح بوذا أو بركاته تتخلله؟ فى الكنيسة أناء مشابه فوق عمود قصير داخله ماء يباركه الكاهن ويطلق عليه البخور فيصبح ماء مقدساً يؤمن البعض بأنه يشفى المرضى ويرسمون به علامة الصليب على جباههم، فهل لهذا الماء وظيفة مشابهة؟ نظرت البنت الصغيرة فى وجهى ثم ضحكت ضحكة عالية وراحت تجرى لتلحق بزميلاتها.

فى الطريق «التجارى» القادم من ساحة المعابد فى كيوتو كان هناك مطعم صغير خال من الزبائن، وقد دخلناه على الفور. كان هناك مطعم آخر شديد الازدحام لأن احدى رحلات تلاميذ المدارس قد احتجزت جميع المقاعد. كان صاحب المطعم قد خلع قميصه وراح يلعب باصبعه فى فمه. ولم أصدق عينى، وهو جالس بالفانلة وخلفه زوجته فى البنطلون الجينز والبلوزة. ورحت أتأمل المكان بحثاً عن السبب فى خلوه من الزبائن. كانت قاعة المطعم صغيرة مستطيلة والمقاعد قليلة، ولكن التماثيل واللوحات تتزاحم على الجدار وداخل واجهة العرض الزجاجية. ولم يصل

احد غيرى وزميلى ليتناول طعامه. سألت الرجل: ما الحكاية؟ اين الزبائن؟ قال: فى المساء، إنهم يأتون للسمر مساء، يأكلون ويشربون ويمضون فى سلام. اما النهار فهو للسياح، ونحن كما ترى لسنا محلاً سياحياً. سألت صاحبى: هل للسياحة شروط؟ قال: نعم، فهذا محل متواضع نسبياً اذ قورن بغيره من المطاعم أو الكافيتريات.

من الطريف ان الاسعار شبه موحدة وثابتة فى هذه المتاجر السياحية. ولكنك ما أن تقترح سعراً آخر - بأسلوب المساومة - حتى تفاجأ بأن المكتوب شئ والممكن شئ آخر. وليست هذه بالطبع خصيصة يابانية. ولكنى استغربت وجودها فى اليابان. أما المتاجر البعيدة عن المتاحف فأسعارها غالباً ثابتة وعالية جداً. وربما تجد البضاعة ذاتها فى بلاد آخرى - كتايلاند أو كوريا الجنوبية - بأسعار أقل. ولا يبدى البائع اليابانى حرصاً شديداً على اجتذابك علناً، فهو يعتقد أن السلعة اليابانية لا تحتاج الى دعاية. وهى تعلن عن نفسها فى المناسبات الهامة كالافراح والحفلات الخاصة والعامة. إنك فى حفل الزواج سوف تشاهد الاقمشة والاحذية والاكواب وآلات التصوير.

وقد كنت حريضاً على مشاهدة حفلات الزواج، لأنها - كما قيل لى - مهرجان أو كرنفال. مبنى كبير جداً يمتلىء بالحدائق والقاعات والاجنحة. هذه الغرفة يجلس فيها اهل العروسين، ولا يدخلها الاجانب أمثالى. لقد حاولت يومى أن تستأذن لى فى الدخول، فقيل لها بمنتهى

التهذيب: فى القاعة الاخرى ممكن. والمقصود هو القاعة التى يتلون فيها بعض الادعية والنصائح والتعاليم. كان العريس فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين تقريباً وقد ارتدى ثيابا خاصة كأنه قسيس. وكان هناك رجل يسمى «صانع السلام» Peace-maker لا علاقة له بالكهنوت. وإنما هو يقرأ على المدعوين معانى السلام التى تقترن بالزواج .. فالزواج شركة من أجل المستقبل. الاطفال هم المستقبل. والمستقبل للسلام. لذلك كان لابد لهذه الشركة من التأسيس فوق صخرة صلبة من التعاون والتراحم. العريس هو نفسه الذى يكتب عقده. وهذه هى السيدة التى تسلمه عروسه. ويخرج الجميع من غرفة الأهل والمدعوين الى القاعة التى سيمارسون فيها نوعاً من الطقوس أو الشعائر التى تتبع ديانة الشنتو. وهى طقوس تقوم بها فتاتان. يجلس العريس والعروس فى المنتصف، ويقفان احياناً لسماع بعض التعاليم التى يرتبطان بها. ثم ثلاثة صفوف على يمين القاعة. الجميع هنا يرتدون اغلى الثياب. والجميع صامتون كأنهم فى صلاة. اعباء العرس تقع على كاهل الرجل، والعروس تساهم احياناً، ولكن الرجل يتحمل العبء الاكبر.

(٣)

يخيل اليك، لأول وهلة، ان الاسرار تخيم على وجه اليابان. الناس لا يتكلمون بل يتهامسون. الابتسامة محايدة لا تعرف ما اذا كان صاحبها سعيداً أم تعيساً، محتجاً أم موافقاً. الكتمان يظهر فى الأدب الجم الذى يحيطونك به. ولكن الحقيقة الآخرى، أو الوجه الآخر للحقيقة هو أن اليابان فى غموضها ليست سراً من الاسرار، ولا يميل مواطنوها الى كبت مافى نفوسهم، إنهم، فيما بينهم، يفصحون عن كل شئ. ولكن عين الاجنبى لا تسمع وأذنه لا ترى.

فى هذه البلاد يعيش اكثر من ١٢٠ مليوناً، متوسط العمر للذكور هو ٧٥ عاماً تزيد خمس سنوات للانثى. اننا اذن فى رقعة ضيقة مزدحمة. انهما صفتان لاصفة واحدة، فلو كانت الرقعة ضيقة فقط،

لاختلفت العادات والتقاليد عما هى عليه الآن. وقد أهمس لمرافقتى ان هذا العددَ الضخم لم يكن موجوداً من قبل، وسوف يتضاعف فى المستقبل. وتجيب: كذلك العادات لم تكن هى نفسها فى الماضى، لقد تغير اليابانيون كثيراً. والشائعة الرائجة بأن «أرواحنا» لم تتغير على مرّ الزمان غير صحيحة. اننا نتغير دائماً، ولكن اسلوب التغيير يختلف عنه في أى مكان آخر. خذ مثلاً العاصمة طوكيو. انها عاصمة البلاد منذ مائة وعشرين عاماً فقط (تأسست عام ١٨٦٨) فقد كانت العاصمة القديمة هى نارا مدينة المعابد الشهيرة، ثم انتقلت الى المدينة التى لاتقل شهرة وهى كيوتو. وكان الاسم القديم إيدو الذى تحول الى طوكيو. مساحتها لم تتغير فما زالت ٢١٤١ كيلو متراً مربعاً، ولكنها امست تضم ١٢ مليونا من السكان. هذه كلها متغيرات، بطيئة ربما سريعة احياناً، ولكنها متغيرات .. فانتقال العاصمة من مكان الى آخر وبناء ناطحات السحاب واستيطان ١٢ مليونا وانتشار المجمعات الضخمة للطعام والشراب والبيع والشراء، هذه كلها «وسائل» التغيير. ولا يمكن لهذه الوسائل أن تكون محايدة ازاء المشاعر والافكار وما تسميه «الروح» .. فليست الروح اليابانية خارج الزمان والمكان. انها تعيش فى دنيانا هذه تؤثر وتتأثر.

كان صوت المرافقة قد بدأ يتحمس، وأضحى على قرب قريب من الانفعال. وهذا يعنى أننى قد اصبت بسؤالى وتراً حساساً، هو الايحاء

الاجنبى بأن الثوابت اليابانية هى المبادئ. استطردت المترجمة كايو: ليس صحيحاً بالطبع اننا أضحينا بلا مبادئ، ولكن ليس صحيحاً أيضاً أننا أسرى القرون الغابرة والازمنة السحيقة. لسنا نفوساً حجرية لا تتأثر بالجديد، ولكننا كالاشجار طالما بقيت فى تربتها، فإنها تتغذى من الجذور. والجذور اليابانية ليست هى المبادئ التفصيلية، وإنما القيم العامة التى فرضتها البيئة والموقع والتاريخ. لا احد يستطيع أن يتعرى من تاريخه والآ مات من البرد والحر.

ومن الطريف انك تسمع كلاماً عن الاجانب فتظن انك فى فرنسا أو فى بريطانيا حيث يصل عدد المهاجرين من افريقيا وآسيا وجنوب أوروبا الى عشرة فى المائة تقريباً من عدد السكان. ولكن عدد الاجانب فى اليابان حسب الاحصاء الرسمى لعام ١٩٨٦ هو: ٨٦٧٢٣٧ الف نسمة غالبيتهم من الكوريين المولودين فى اليابان، ربما حتى الجيل الثالث. وكوريا، بكل المقاييس، لا تعتبر اجنبية، وقد احتلها اليابانيون فترات طويلة. ولكن اليابانيين يعتبرون غير اليابانيين منذ بدء الخليقة اجانب، حتى ولو أن الاجنبى قد هاجر اليها قبل مئات السنين. هذا هو الاساس العنصرى الدفين الذى لا يفيد معه أى تفسير اقتصادى، فالبطالة التى تعرفها اوروبا الغربية والتضخم الذى يعرفه العالم الثالث يثمر الظواهر العنصرية هنا وهناك. أما اليابان فلا تعرف عجزاً فى ميزان المدفوعات ولا ارتفاعاً فى ميزانية الدفاع. ومع ذلك، فهى شديدة النفور من

الاجانب، حتى اذا كانوا من الجنس الاصفر الاسيوى. ويتدرج النفور نزولاً الى الهنود والباكستانيين الى الشرق الاوسط فكل افريقيا حيث تبلغ الكراهية ذروتها للون الاسود. بينما يحظى اللون الابيض باحترام بالغ.

ليست هذه قيمة ثابتة راسخة من العصور القديمة، فربما لم تكن معروفة، ولكنها حصيلة الارتباط القوى بهذه الرقعة الضيقة من الأرض والغزوات الاجنبية والغزو المضاد وتحديات الطبيعة بمفاجآتها البركانية وأعاصيرها والزلازل. إن المناخ المعتدل لا يدوم أكثر من ثلاثة أشهر، فالامطار تهطل طوال السنة. وقد هطلت مداراً حين كنت فى نارا وكيوتو.

ربما كان هناك احساس خفى بالتفوق لدى المواطن اليابانى العادى، ولكنك لا تلاحظه على أيه حال، وإنما هناك احساس واضح بالتفرد، تلمسه لمس اليد خاصة فى صفوف المثقفين ورجال الاعمال. كنت على مائدة العشاء برفقه السفير المصرى وهيب المنياوى فى بيت المستشار الاعلامى شاكر سعيد. وكان من بين المدعوين رجل اعمال يدعى تاكاشى اساجا Takashi Asaga مدير عام التخطيط فى احدى الشركات، وقد ظل صامتاً اغلب الوقت. وكان معنا ايضاً البروفيسور يوزو اتاجاكى Yozo Atagaki استاذ دراسات الشرق الاوسط فى معهد الثقافة الشرقية بجامعة طوكيو، وقد شارك فى الحديث بعض الوقت. وبالرغم من التباين

الشديد فى المستوى الثقافى واختلاف المهنة بين الرجلين، فقد توقفت طويلاً عند كلمات رجل الاعمال، حين تكلم وقال: لست أظن أن الاميركيين قادرون على التعامل الصحيح مع العرب، والسبب هو نظمهم الادارية التى تدعو للرثاء. إننا لسنا افضل منهم، ولكننا مختلفون. وهذا الاختلاف يؤدى أحياناً الى نجاحنا فى التعاون مع الآخرين. اما البروفيسور، فقد كان يتكلم عن صراع الشرق الاوسط - وهو فى الأصل استاذ تاريخ - سمعته يقول: إنهم فى الغرب أذكياء جداً، ولعل بريطانيا تعرف الشرق الاوسط اكثر كثيراً من الولايات المتحدة، كذلك فرنسا فى الشمال الافريقى، ولكن الجميع فى الغرب يتشابهون فى أنهم يتعاملون دائماً مع النخبة السياسية الحاكمة. إننا فى اليابان نفضل التعاون مع المواطن الذى يركب السيارة ويسمع الترانزستور ويهوى الكاميرا، لسنا افضل من الغرب بالتأكيد، ولكننا مختلفون.

هذه هى الكلمة الدقيقة: الاختلاف، أى التفرد. وهو الذى قد يستدرج اليابانى لاشعورياً الى الاحساس بالتفوق. وما أن يشعر المرء ولو بشكل عام أو دفين أن تفرده يعنى التفوق، حتى تبدأ نظرته الى الآخرين تتخذ لنفسها معياراً هو ضمير المتكلم. يصبح الفرد أو الطبقة أو الدين أو الجنس أو اللون هو المقياس، أو القيمة المعيارية. وبالطبع فاليابانوين يختلفون من هذه الزاوية عن الفرنسيين الذين استطاعوا ايضاً، بعد الحرب الثانية، وفى فترة وجيزة، أن يحققوا نسباً عالية فى

الانتاج وأن يدخلوا النادى النووى، وفى الوقت نفسه فهم اصحاب الذوق الرفيع فى اختراع الموضة والعطور والابتكار فى الآداب والفنون. ولكن الفرنسى لا يستطيع أن يخفى شعوره بالزهو الذى قد يصل فى بعض الاحيان وفى بعض النماذج الى حدود العنصرية. يختلف اليابانيون عن الفرنسيين ويقتربون أحياناً من الالمان الذين يجيدون التفرد والتفوق معاً، ولكن دون كلام أو إيماءات كثيرة.

فى يوكوهاما الميناء الكبير الذى يصل عدد سكانه الى حوالى الثلاثة ملايين نسمة، التقيت مدير معرض Waitepco (اختصار اسم شركة كهربائية) وهو شاب فى مقتبل العمر يدعى تاكوجى يوشيـول Takuji Yoshioka قال لى بعد جولة حول منجزات الشركة التى يديرها: لقد تابعت، بحكم عملى، انجاز المركز القومى للثقافة الذى تصرون على تسميته «الاوبرا». دعنى اصارحك بأن اليابان تستطيع أن تتعاون معكم انتم العرب، على نحو آخر، يغاير الصورة الشائعة عن العلاقات بينكم وبين الولايات المتحدة. إن الصورة اليابانية الرائجة فى بلادكم هى التكنولوجيا المتقدمة الرخيصة. والصورة العربية الرائجة في بلادنا هى الطاقة (النفط) والاستهلاك، فنحن ناخذ منكم البترول ونعطيكم الفيديو. أنتم اغنياء ونحن اغنياء. والصورتان كلتاهما ناقصتان، بل مشوهتان .. فاليابان ليست مجرد راديو ترانزستور، وانما نحن موقع وتجربة. والموقع جغرافيا سياسية، والتجربة ثقافة وحضارة.

وأنتم أيضاً لستم آباراً مغلقة واسواقاً مفتوحة. من قراءاتى السريعة والبسيطة أعرف أنكم اصحاب حضارات عريقة وتجارب هامة وموقع استراتيجى. هذه كلها تقربنا اليكم وتقربكم الينا، بالرغم من البعد الجغرافى الذى لا يصبح فى زماننا بعداً. لماذا يظل الغرب وسيطاً بيننا، ولماذا يظل الغرب اقرب الينا واقرب اليكم؟

وهو السؤال الذى اتخذ مساراً آخر فى حوار المائدة المستديرة بينى وبين أوشى ياما رئيس شركة السمعيات والبصريات والاستاذ فى جامعة واسيدا. وقد حضر هذا الاجتماع البروفيسور يوشى مورا والمترجمة المتخصصة فى الانثروبولوجيا كايو أو هما جارى Kayo Ohmagari وكان واضحاً مما تزينت غرفة المكتب الواسع من ديكورات وتماثيل وثياب معلقة على الجدران اننى فى «حرم مقدس» للوطنية اليابانية وحضارتها القديمة. وبالفعل كان اوشى ياما رجلاً بالغ الحماس والارتباط بما يسمّى «روح اليابان» القديمة. وقد صرّح لى بأن الاجيال الجديدة تكاد تكون مقطوعة الصلة بتلك الروح التىّ يراها أساس بقاء اليابان الى اليوم. ربما كان عدد «المؤمنين» بالوطن القديم المستمر قليلاً، ولكن لولا هؤلاء لما استمرت اليابان الى اليوم. ويشرح لى: أنت لن تجد اليابان فى الجامعات والمدارس والمصانع، ولا حتى فى المعابد التى أصبحت أقرب الى المتاحف أو المزارات السياحية. وإنما ستجد اليابان فى القيم وأنماط السلوك التى يتخذ بها النادرون من اليابانيين. هؤلاء تسكنهم روح اليابان. وهم

موجودون فى المزارع والمصانع والمكاتب والشوارع دون أن نراهم، فهم يسلكون ويشعرون ويفكرون بطريقة لا تكاد تُرى أو تُلمس أو تُسمع. وهؤلاء يومنون بأن كل ما يجرى أمامنا وحولنا ليس نهاية الكون ولا نهاية اليابان، وبالرغم من كل شئ فهو ليس اكثر من قشور. يؤمنون ان اليابان كامنة على نحوما، وان اليابانيين لم يسلخوا جلودهم. إنهم فى لحظة ما لا يتوقعها أحد يبرهنون على يابانيتهم بأقوى الادلة والقرائن. اليابان لم تغادرنا وإلاّ لمتنا.

ويستطرد البروفيسور اوشى ياما قائلاً إن روح اليابان لا تعارض التكنولوجيا، ولكنها تعارض أية وظائف أو أهداف غير يابانية لهذه التكنولوجيا. بل إن الروح اليابانية تلهم التكنولوجيا وتطورها بما يخدم اليابان حاضراً ومستقبلاً. وروح اليابان لا تعارض التحديث الشامل، وليس التحديث الجزئى الهامشى المبعثر غير المترابط. لا نريد تحديثاً مقصوراً على التكنولوجيا، ولا نريد تحديثاً مقصوراً على المظهر الخارجي، ولانريد تحديثاً ترسم حدوده استراتيجيات اجنبية، مصالحها هى لمقياس أولاً واخيراً. وانما نريد تحديثاً موصولاً وشاملاً وكليا ومترابطا، نرسمه نحن لبلادنا من وحى مصالحنا ومستقبل البشرية فى وقت واحد. ولكن هذا المستقبل، نراه نحن بعيوننا ونسمعه باذاننا ونلمسه بأيدينا، وليس بواسطة أو وساطة الأخرين.

ولذلك - يستمر أوشى ياما فى الكلام - فنحن نرتبط بعصر

وعالمكم العربى كله باوثق الارتباطات. وفى اعتقادنا ان الارتباطات الوثيقة هى الارتباطات الثقافية التى تستوعب التكنولوجيا حقاً، ولكنها تقوم على أساس حوار الحضارات. أى الاعتراف بالخصائص أو النماذج المستقلة للابداعيات الحضارية. إننى أؤمن مثلاً، بأن ما يظهر على السطح مما تسمونه فى بلادكم تخلفاً، ليس اكثر من أعراض طارئة لامراض عابره يمر بها العالم كله فى تنوعات مختلفة. ولكنكم تحت السطح أصحاب حضارات عظيمة يستحيل ضياعها بمرور الزمن. إننا نعرف من امثال البروفيسور يوشى مورا رئيس المركز المصرى فى جامعة واسيدا الذى يحضر معنا هذه الجلسة، كم هى غنية حضارة مصر القديمة. ونعرف ايضاً كم هى غنية حضارة العراق وحضاره اليمن. ونعرف كذلك الاسلام. ولابد أن كل ذلك يتفاعل، وهو قادر دوماً على الانبثاق والتفجر والعطاء العظيم. ولا يمكن لاحفاد هذه الحضارات إلاّ أن يكونوا رواداً مبدعين كأسلافهم، ومن هنا فنحن نهتم بآثاركم القديمة وابداعاتكم الجديدة على السواء. وقد زرت شخصياً بلادكم وبعض الاقطار العربية الاخرى، وسنواصل زياراتنا وعملنا، لان اللقاء الحضارى بيننا أهم وأبقى من أى لقاءات اخرى. بل إن هذه اللقاءات الأخرى لن تكون ايجابية وعادلة الاّ اذا استبقتها وواكبتها وتلتها المحاورات الحضارية الأعمق. إننا نهتم بالافلام التسجيلية كإحدى وسائل الحوار الحضارى. من خلال هذه الافلام نقيم الحوار داخلها وخارجها. وهى أفلام علمية ليست للتسلية.

وقد بادرت الشركة التى انتمى اليها بالاحتفال بنجيب محفوظ برفقة جامعة واسيدا. وحرصنا على أن يكون هناك فيلم مصرى مأخوذ عن ثلاثية نجيب محفوظ، يعرض فى الاحتفال مترجماً الى اليابانية. وقمنا ايضاً مع جامعة واسيدا باعداد ندوة تفضلتم بان تكونوا ضيف الشرف فيها، وقد شارككم فى الحديث مجموعة من صفوة المتخصصين اليابانيين فى الادب والتاريخ. وكما لاحظتم فقد كنا على صلة وثيقة بمساعدة المكتب الاعلامى للسفارة المصرية والحضور المكثف للسفراء العرب. هذا هو الحوار الحضارى الذى يفيدنا ويفيدكم.

وقد لاحظت ان البروفيسور أوشى ياما كان حريصاً فى دعواته المتكررة لى، أن أرى معبداً عظيماً فى غابة خضراء، وأن أتناول معه طعام الغذاء فى مطعم صينى - استكملنا فيه حوارنا - وطعام العشاء فى مطعم يابانى على الطريقة التقليدية.

قلت للاصدقاء الذين يحيطون بى على المائدة الصينية: ما هو أحب مطبخ اجنبى اليكم؟ اجابوا دون تردد فى صوت واحد تقريباً: المطبخ الصينى. قلت: فى فرنسا يفضلونه ايضاً. ولكنى اعتقد ان المطبخ الفرنسى أهم كثيراً، وإن كنت شخصياً افضل المطبخ اللبنانى وانصح للصحة الجيدة بمطبخ المغرب الاقصى. علقوا واحداً بعد الآخر: أما نحن فالمطبخ اليابانى أولاً، والصينى ثانيا. وليست المسألة مجرد المذاق اللذيذ، وانما بقية عناصر «المائدة» التى تشارك فى صنع المذاق. بهذه

العناصر يصبح الطبخ عملاً ثقافياً وحضارياً.

لم أسالهم عن اسلوب تناول الطعام، كنت قد لاحظت ان اليابانيين يمضغونه بصوت مسموع، ورأيت من يبصق فى الشارع، ومن يمسح بقايا الطعام بيده وهو يتكلم. هكذا كان من الممكن للسؤال ان يفجر موضوع التخلف والتقدم. وخشيت ان تكون التقاليد بعيدة عن هذه الصفات وأن تستعصى على التصنيف بالصواب والخطأ أو بالقبح والجمال. ولكنى فهمت فقط ان المطبخ الصينى جزء من الحضارة الصينية كالأحرف الأبجدية، وأن اليابان هى إبنة هذه الحضارة.

طريقة الطعام اذن على موائد مستطيلة منخفضة، وخلع الاحذية، والنوم على حشيّات فوق الارض مباشرة واستعمال الاعواد الخشبية فى تناول الطعام والمصافحة بالانحناء وليس بالايدى، كلها وغيرها من العادات والممارسات العفوية التى لا يفكر أحد ما اذا كانت صحيحة أم خاطئة متخلفة أو متقدمة. أنها كزهرة الكرز التى يعشقونها فى اليابان عشقاً كبيراً .. بالاضافة الى تنسيق الزهور فى أوان خشبية أو زجاجية أو معدنية. وقد بلغت العناية بهذا الفن درجة أن هناك آلاف المدارس المتخصصة في تنسيق الزهور. وينسب البعض هذا الفن الى عادة تقديم الزهور الى بوذا، ولكنه من جهة اخرى يرتبط بديانة الشنتتو وعبادة الطبيعة. ومن وحى الخبرة الزخرفية والمنمنمات القديمة يخترع اليابانيون أشكالاً وألواناً وأحجاماً للزهور. وتنسيقها يوهم الأجانب احياناً أنها ذات

دلالات معنوية. غير أن واقع الأمر أنه إحساس فذ بالجمال الذى لا يضاهيه سوى فن السخرية بالنكتة أو رسم الكاريكاتير.

وقد خرجنا، بعد غذاء المطعم الصينى، واذا بأوشى ياما يستقل بنا السيارة الى ذلك المعبد الذى رأيت فى مدخله أسرة تحمل طفلاً، ولما سألت عن المناسبة قيل لى أن هناك عادة شبه دينية يتوجه فيها الاب والام بالطفل الجديد الى المعبد. وهو ليس طقساً كالمعمودية فى المسيحية، ولكنها أول زيارة رسمية الى المعبد لا تلزم الطفل طبعاً بأى شئ.ولكن الذى أدهشنى تفسير مرافقتى لهذه الغابة الخضراء ذات الاشجار الكبيرة الراسخة، فقد قالت لى اننا نحن البشر عندما نموت نتحول الى آلهة تسكن هذه الاشجار. وانت لا تعرف فاصلاً حاداً بين الجد والهزل فى الكلام اليابانى. ولكن الاساطير لا تدعو أحداً للسخرية. مفارقات البشر هى التى تدفع اليابانى الى الضحك المتواصل. أما الاساطير فهى أشبه بالرموز المتجددة والايحاءات، ولا علاقة لها بايمان دينى، بل هى أقرب ما تكون الى اللغة السرية التى يتبادل بها اليابانيون الحوار والتفاهم دون الحاجة الى الكلام. وأشهر الاساطير أن هناك شخصية باسم جيمّو تينُّو سليل آلهة الشمس هو مؤسس الاسرة الامبراطورية التى يرجع تاريخها الى عام ٦٦٠ قبل الميلاد. ويدرك اليابانيون المعاصرون ان هذا الكلام الجميل لا علاقة له بالواقع، ولكنهم يشعرون بالرمز الامبراطورى على نحو أقرب الى وحدة البلاد.

ويبقى الامبراطور رسمياً هو رمز اليابان الذى لم يتخل عنه اليابانيون عند توقيع وثيقة الاستسلام وتغيير نظام الحكم، فقد أصرت الحكومة صاحبة التوقيع على بقاء الامبراطور. ومازال هذا الرمز باقياً بالرغم من تشويه السمعة اذ ينسب اليه الكثير من جرائم الحرب والخطايا النازية.

غير أن السلطة العليا فى اليابان هى البرلمان (الدايت) الذى يتألف من مجلسين أحدهما للنواب (٥١٢ نائبا) والآخر للشيوخ (٢٥٢ عضوا). ويتّولى مجلس الوزراء السلطة التنفيذية كالجمهوريات البرلمانية فى الديموقراطيات الغربية. وتنقسم اليابان الى ٤٧ محافظة. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أصبح هناك خمسة احزاب: أقدمها الحزب الشيوعى (١٩٢٢) ثم الحزب الاشتراكى (١٩٤٥) يليه الحزب الليبرالى الديموقراطى المحافظ (١٩٥٥) الذى يحكم اليابان الى الآن، فالحزب الاشتراكى الديموقراطى (١٩٦٠) ثم حزب الكومى (١٩٦٤).

وقد اكتشفت فى لقاءاتى مع اليابانيين على اختلاف انتماءاتهم السياسية حرصاً على ثلاثة أمور: الامبراطور، والنظام القائم، والشاى.

وهناك تستطيع أن تشرب الشاى ساخناً ومثلجاً، دون سكر وسكر زيادة، كما تشاء. ولكن الأهم هو «حفلة الشاى» التى تحقق لهم: الانسجام والاسترخاء والهدوء. أما التأمل فهو من نصيب المعابد.

فى القرن السادس عشر تبلورت مجموعة من الشعائر الخاصة بحفلة

الشاى، أقامها لأول مرة فى طقوس محددة وعادات ثابتة شينوركيو Senno Rikyu. وكان ذلك فى عصر الشوجن (القائد العسكرى) تايكوهيد يوشى Taiko Hideyoshi وتقام حفلة الشاى فى مناسبات معينة تختلف فيها المأكولات أو الحلوى التى يقدمها المضيف مع الشاى باختلاف المناسبة. ومن الظواهر الملفتة للنظر فى هذا التقليد أن أدوات الحفل، بالرغم من بساطتها، فإنها باهظة الثمن، وقد يصل سعرها فى بعض الحالات الى ٤٠ الف دولار اميركى دون أن تحتوى على أية احجار كريمة.

وقد فاتنى للأسف حفلة الشاى التى كانت ضمن البرنامج. تأخرت عند آلهة الرحمة أو معبد الساكوسا كان نون - A - SA - KU - SA Kan - Non حيث المكان يوحى بروح اليابان القديمة. ويبدو أنها روح مرحة. مئات المحلات الخاصة ببيع الهدايا، وشارع طويل للمسارح ودور السينما تحيط بالمعبد من كل جانب.

وبالرغم من أن اليابان كلها خضرة وكلها مياه زرقاء ورمادية، فإن منتزة يوئى نو U - E. No شديد الخصوصية، فهو يضم أولاً المتحف الوطنى الذى يعرض لك كنوزاً بديعة من التصوير والخطوط والخزف والسيراميك والنحت. وقد فهمت من مدير المتحف ان هذه المعروضات تتغير دورياً. ثم دلفت الى حدائق الحيوانات التى لا أدرى ما اذا كان لها مثيل فى العالم، تبلغ مساحتها ١٢٤٨٠٠ متراً مربعاً (حوالى ٩١

فدانا)، وقد استغرقت جولتى فيها ساعتين. لم أشعر بالتسلية والفضول، بل انتفعت بدرس حضارى فى العلوم وتطورها وارتباطها بالبيئة التى جاءت منها، وعلاقة ذلك كله بالتاريخ البشرى وليس الحيوانى.

ولم أخرج من هذه الحدائق المترامية الباذخة الجمال والفاحشة الثراء الطبيعى إلاّ بعد زيارة المتحف الوطنى للفن الغربى الذى شيد منذ ثلاثين عاماً فقط (أى ١٩٥٩) وهو مجموعة من أندر القطع لأشهر الفنانين الغربيين من رسامين ونحاتين جمعها رجل الأعمال اليابانى كوجى – رو KO - JI - Ro أثناء جولاته فى أوروبا.

هذا هو الدرس اذن: حديقة شاسعة فى بلاد ضيقة المساحة مزدحمة السكان، متحف اليابان القديمة جنباً الى جنب مع متحف الأجانب، أوالغرب. يتوسطهما المتحف الحيوانى العجيب. هل هناك «تصميم» له هدف أبدع من هذا التصميم؟

وكان لابد فى طريق العودة من «تسلّق» برج طوكيو، بالرغم من خوفى المقيم من الارتفاعات. وهو برج يقع بالقرب من منتزه شيبا SHI - BA - ويملكه اتحاد التلفزيون اليابانى، يبلغ ارتفاعه ١٠٩٢ قدم، ويمكن مشاهدة المدينة من الطوابق التى تصل الى ما بين ٣٩٠ و ٧٣٨ قدماً فوق سطح الارض. والى جانب المطاعم والمحلات التجارية ووسائل التسلية التى تملأ طوابق البرج، هناك المتحف المذهل الذى تعرض فيه

أحدث منجزات التكنولوجيا الالكترونية.

عند عودتى كنت أتصفح جريدة «چابان تايمز Japan Times» التى تطبع فى الانجليزية وتوزع يوميا ٥٥ ألف نسخة فإذا بأخبار مصر ولبنان وفلسطين تحتل ثلث الصفحة الأولى والثانية، وأخبار أوربا الشرقية - وكانت محصورة فى بولندا والمجر - تحتل الثلث الثانى من الصفحتين الأولى والثالثة. وكانت أخبار الولايات المتحدة وعرب اوروبا تحتل ثلثى الصفحة الثالثة. وكانت أخبار اليابان تحتل الثلث الثالث من الصفحة الاولى وكل الصفحة الرابعة. والاقتصاد يحتل الخامسة والسادسة. وبقية العالم يحتل بقية الصفحات. ولكن اخبار الصين لها - رغم ذلك - مكانها المميز.

هناك ثلاث صحف أخرى باللغة الانجليزية توزع ١٣ ألف نسخة ولكن اليابان تصدر حوالى ١٢٦ صحيفة توزع ٦٥ مليون نسخة يومياً، من بينها الصحف القومية والاقليمية والمحلية. وأكبر الصحف اليابانية نفوذاً هى أساهى شيمبون Asahi Shimbun وقد وصفتها مرافقتى بأنها لسان حال يسار الوسط ويبلغ توزيعها من طبعتين إحداهما صباحية والاخرى مسائية ١٣ مليون نسخة. أما اكبر الصحف توزيعاً فهي يوميوري شيمبون Yamiuri Shimbun لانها توزع فى طبعتى الصباح والمساء ١٥ مليون نسخة، وتعبر عن يمين الوسط أما ماينيشى شيمبون Mainichi Shumbun التى تتعاطف مع العرب

وأساساً مع القضية الفلسطينية، فإنها توزع فى الطبعتين سبعة ملايين نسخة. هذه هى اكبر ثلاث صحف يابانية يومية. وهناك صحيفة اقتصادية وأخرى سياسية أقل توزيعا.

اما الاذاعة فقد بدأت عام ١٩٢٥ بعد خمس سنوات من أول بث اذاعى فى العالم. وهناك الآن حوالى ستين شركة تدير مائتى محطة إذاعية الى جانب خمسة وتسعين شركة تدير اربعة الاف وسبعمائة محطة تلفزيون .. بالاضافة الى وكالتى أنباء، إحداهما تشترك فى ملكيتها ثلاث وستون صحيفة، هى وكالة كيودو. أما وكالة جيجى فمؤسسة تجارية يملكها العاملون فيها ومتخصصة للأنباء والتحليلات الاقتصادية.

وفى مجال النشر تملك اليابان ٤٢٦٩ دارا تصدر ٢٨ ألف كتاب ومائتين وثلاثين مجلة.

وهذا كله يعنى أن اليابان بلد قارىء فى مقدمة بلاد العالم. ولكنها لا تعنى أن اليابانى قارئ جيد.

الفصل الرابع
الدين والعلمانية

(١)

ما أن وصلت الى طوكيو مساء الثامن من سبتمبر ١٩٨٩، وكان في استقبالي المستشار الاعلامي المصري شاركر سعيد والبروفيسور الياباني يوشى مورا واحدى العاملات معه تاكا هاشي يومي، حتى توجهنا - على مبعدة سبعين كيلو متر - الى فندق طوكيو كايا هايكان Tokyo Kaya Haikam ثم تناولنا العشاء في مطعم قريب وعدنا الى الفندق الذي كان قد تسلم حقيبتي وأعد غرفتي التي كنت أتوق اليها بعد طيران يوم كامل. ولكن النوم هرب من النافذة المغلقة بمجرد ان فتحت الباب وأضأت الانوار. ولم اشعر بالتعب. رحت افتح الادراج المجاورة للفراش واحداً بعد الآخر. واختطف النظر الى الصور الاخاذة لبعض المشاهد اليابانية المرسومة بجاذبية ساحرة. وفي أحد الادراج كان هناك مالم أتوقعه: كتاب في الانجليزية واليابانية عنوانه «تعاليم بوذا»

وآخر هو «العهد الجديد» في الانجليزية واليابانية أيضاً.

واندهشت من هذا الاستقبال «الديني» الذي يذكّرني ببعض الفنادق في أوروبا. وكنت أظن ان اليابان تختلف من حيث ان دياناتها - ان جاز التعبير - شديدة الوطنية وليست للتصدير، وأما المسيحية فلا تشكل اليابان موطنا هاماً لها يبرر هذا الاهتمام .. بالاضافة الى الصورة «الدينية» التي لليابان في المؤلفات الغربية، وهي بعيدة كليا عن المصطلح الديني كما يعرفه المسيحيون والمسلمون واليهود في أي مكان.

ولكن برنامج الدعوة اليابانية كان يدّخر لي مفاجأة كبرى، فحين سألتني البروفيسور يوشي مورا قبل سفري عن المدن التي أرغب في زيارتها كانت هيروشيما أول المدن، واوساكا ثاني المدن - لانني سألقي في جامعتها محاضرة عن الأدب العربي المعاصر - وطلبت ايضاً زيارة نارا وكيوتو لأن اصدقائي الذين سبقوني في معرفة اليابان حرضوني على مشاهدة العاصمتين الأقدم من طوكيو. ولكن المفاجأة كانت هذه المعابد الهائلة والتماثيل الشاهقة ورحلات المدارس التي لا تنقطع الى نارا وكيوتو.

لا مفر من الاستخدام الياباني لمصطلحات «الدين» و«الالهة» و«المعبد» و «الصلاة»، فهذه الالفاظ لا تعادل معانيها التي نعرفها في بلادنا أو في الغرب. وفي كتاب عنوانه «الاديان في اليابان» كتبه وليم ك. بونك الانجليزية (طوكيو ١٩٨٦) يقول حرفياً «كلمة معبد

تعنى مؤسسة كبيرة من المدارس والملاعب وقاعات المحاضرات» (ص ٥٣). وهذا المعنى يخص البوذية، أما بالنسبة للشنتوية فانها تعنى الأضرحة التى قد تكون أحياناً أضرحة عائلية.

وقبل أن اتجول بين معابد نارا وكيوتو أحب أن أفرّق بين «الديانات» الثلاث الاساسية، وهى الشنتو والكونفوشيوسية والبوذية.

أما الشنتو فهى الديانة الوطنية الأقدم فى أرض اليابان، لان الكونفوشية قادمة أصلاً من الصين، وكذلك البوذية لم تأت من الهند، بل من كوريا والصين. ولكن الشنتوية أقدم صورة يابانية للدين. وهى فى كلمتين عبادة الأسلاف وعبادة الطبيعة، أى القديس الاجداد والتوحد مع الطبيعة .. فالانسان والحيوان والنبات منظومة واحدة فى سياق مشترك، كذلك الماء والصخور. وعبادة الاسلاف هى التى أثمرت تقديس السلالة الامبراطورية من ناحية، والنظام الأبوى من ناحية اخرى. والتوحد بالطبيعة يعنى انه ليست هناك قوة مفارقة أو متعالية. ومعابد الشنتو مكان للمهرجانات والاحتفالات. وأغلب اليابانيين واليابانيات يعقدون زواجهم وأعراسهم فى معابد الشنتو، أيا كانت «ديانة» العروسين. وكان عصر ميجى قد جعل من الشنتوية عقيدة وطنية للدولة. ولكن الامر اختلف بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد أن كانت الدولة تنفق مثلاً على معبد ميجى المهيب والذى يرتبط بأسم أول امبراطور معاصر، وكذلك معبد ياسوكونى الذى يرتبط بشهداء العسكرية اليابانية - وكلاهما فى

طوكيو - فإن الوضع الآن شديد التأزم، لأن المعابد تعتمد على نفسها فى التمويل. ولم تعد الدولة تدعم اية مؤسسات مدرسية أو جامعية تابعة لأى «دين». ولكن التاريخ العريق، الفنى والسياسى، يجعل من هذه الامكنة اهدافا للسياح الاجانب، بل والسياحة الداخلية. وهناك أيضاً المحلات التجارية التى تقام فى ساحات المعابد أو الشوارع المؤدية اليها، وخاصة فى المناسبات الشعبية.

وبالرغم من انه يصعب علينا القول بأن هناك ايماناً شنتويا يملأ قلوب اليابانيين، إلاَّ أن محبة الطبيعة من الأفكار الشنتوية المترسبة فى أعماقهم. إن محبة الزهور والبحر والجبل والحيوانات (حتى أن الغزال الأليف يمشى بين الناس ومعابد نارا) تصل الى مرتبة العشق. وبالرغم من أن الامبراطور لا يملك السلطة الآن، الاَّ أنه ما يزال رمزاً. كذلك النظام الاجتماعى القائم على الترابط العائلى والتراتبية العائلية. هذه كلها قيم شنتوية باقية، وقد اختفى الجانب العقائدى.

أما ما ندعوه نحن والغربيون بالديانة الكونفوشية - نسبة الى الحكيم الصينى كونفوشيوس - فإن تسميته الآسيوية هى «تعليم العلماء». ويرجح المؤرخون أن كونفوشيوس قد عاش بين عاميّ ٥٥١ و ٤٧٦ قبل الميلاد. ولهذا الحكيم مجموعة من التعاليم التى لا علاقة لها أيضاً بالعالم الآخر، فهو يشترك مع الشنتوية فى هذه النقطة الجوهرية. ويشترك معها تقريباً أو جزئياً فى علاقة الانسان بالطبيعة، حيث يحدد

قواعد الانسجام بين البشر والطبيعة من جانب، وبين البشر والأخلاق الاجتماعية الصارمة من جانب آخر. تهتم الكونفوشية اذن بالقيم التى يمكن استيحاؤها من الانسجام مع الطبيعة، وانسجام الدولة مع المجتمع، فليست هناك تصورات غيبية أو فكرة ما عن الله. وبالتالى ليست هناك أنظمة كهنوتية أو عبادة. هناك فقط «الفكر القوى والحياة الحية» بالخضوع للامبراطور، والهرمية العائلية المتماسكة والاخلاق الاجتماعية أو الشعائر الاجتماعية التى تحددت مبادئها فى خمس علاقات أساسية. وكما تدخلت الشنتوية بالكونفوشية، فقد تداخل كلاهما فى البوذية. كان نظام توكوجاوا هو الذى ربط بين الكونفوشية والبوذية ربطاً وثيقاً. ولكن الكونفوشية كالشنتوية زالت تماماً من العقل اليابانى، وبقيت آثارها فى القلب تحرك السلوك نحو التأسيس الاخلاقى للدولة والتنظيم الابوى للعائلة والاقبال دون حدود على التعليم ومعاناة التقدم نحو العصرية. وقد ساعدت هذه الرواسب الكونفوشية على النهوض اليابانى الحديث، بالرغم من أنها رواسب تحت السطح.

أما الديانة التى يمكن أن نطلق عليها هذه التسمية بتحفظ، فهى البوذية. والتحفظ هو أن البوذية تؤمن بعالم آخر، ولكن على غير النحو المعروف فى المسيحية والاسلام. وبوذا مثل كونفوشيوس لا يزعم انه مرسل من السماء. ولكن أرض بوذا أو الأرض الطاهرة أو الأرض الموعودة التى يصل اليها المرء بالمجاهدة واتباع تعاليم بوذا من أجل

الخلاص تشبه الدعوة المسيحية الى «ملكوت الله».وفى الكتاب الذى عثرت عليه فى أحد أدراج غرفة الفندق تصدرت قصة حياة وموت شكيامونى بوذا Shakyamuni Buddha.

والصفحات الأولى تشبه الى حد كبير قصة السيد المسيح، سواء من حيث الميلاد أو المعاناه أو التعاليم الاخيرة التى تشبه «موعظة الجبل». يقول بوذا فى كلماته الاخيرة بالقرب من الاشجار عند كوسيناجارا Kusinagara «إجعل من نفسك نوراً. لا تعتمد على الآخرين. دع تعليمى منارتك، واتبعها، لا تعتمد على أية تعاليم اخرى. عقل الانسان يجعل منه بوذا وقد سجعل منه وحشاً. ولكن الانسان يمكنه ان يصبح جوهرة متلالئة. لذلك انتبه جيداً الى عقلك ولا تدعه يتنكب الطريق الصحيح. وعليك، عليكم، أن يحترم كل منكم الآخر، وأن تتآزرا لا كالماء والزيت وانما كالماء والحليب. إدرسوا معاً، وطبقوا تعاليمى معاً. لا تفسدوا عقولكم وتخسروا وقتكم بالسجال والشجار. تمتعوا بزهور التنوير فى فصولها واجنوا ثمار الفاكهة فى مواعيدها. التعاليم التى اعطيكم اياها قد حصلت عليها بنفسى، وسوف تتبعونها باستلهام روحها فى المناسبات المختلفة. واذا تنكرتم لها فإن هذا يعنى انكم لم تعرفونى قط، أى انكم بعيدين عنى بالرغم من أنكم معى. أما اذا تقبلتم هذه التعاليم وطبقتموها، فانكم حينئذ تصبحون قريبين منى حتى وان كنتم بعيدين جداً. الحياة لا تنعدم،

ولكنها تتغير، ولا أحد يهرب من تحولات الجسد. وهذا ما سأبرهن لكم عليه بموتى. والآن لقد حانت ساعتى .. فلا تنسوا ان الموت هو النهاية الفيزيقية للجسد. لقد ولد الجسد من أبوين ونما بالطعام، وبالشيخوخة والامراض يموت. ولكن بوذا ليس مجرد جسد بشرى، إنه التنوير. الجسد الانسانى يجب أن يموت. ولكن حكمة التنوير ستبقى للابد فى حقيقة الدارما Dharma وفى تجربة الدارما. من رأى جسدى لا يعنى بالضرورة أنه قدرآنى، ولكن من يقبل تعاليمى هو الذى يرانى. بعد موتى تصبح الدارما هى معلمكم. اتبعوها فتصبحون أتباعى حقاً. وخلال الخمسة والأربعين عاماً الاخيرة من عمرى ليس لدّى تعاليم أمسكتها عنكم. ليس من سرّ أو معنى خفى، كل شئ قد علّمته لكم بصراحة ووضوح. يا أعزائى، هذه هى النهاية. وخلال دقيقة سأعبر النيرفانا. هذه هى تعاليمى».

وقد عاصر بوذا فى أرجح الاحتمالات كونفوشيوس. والفكرة الجوهرية فى التعاليم البوذية هى خلود الحياة عبر دورات تبدأ وتنتهى فى التناسخ المأخوذ عن الهند. وأيضاً عبر الاهوال التى يعانيها الانسان فى شقاء الدنيا حتى يتحرر من الدنيويات ويفنى فى الوجود. والطريق الى هذه الحرية هو مجاهدة النفس والتأمل. ويمكن القول بأن البوذية التى دخلت اليابان فى القرن السادس عشر لم تعش فعلياً اكثر من ثلاثة قرون تحولت بعدها الاديرة والمعابد الى رموز فولكلورية ومشاهد

سياحية. وأضحت مجموعة من الذكريات التى تستدعى التأمل فى الأحوال الحاضرة. وأمست المقابر الملاصقة للمعابد مدافن حقيقية للرماد الذى يتبقى من الأجساد المحترقة بعد الموت. وفى بعض البيوت تحتفظ العائلات بنماذج مصغرة للمعبد البوذى تتوسطه شجرة العائلة. وهى الورقة التى يسجلون فيها الانساب. وليس الامر مقصوراً على إثبات النظام الأبوى وعبادة الاسلاف. وانما كانت هذه هى الطريقة الوحيدة امام التوكوجاوا لاكتشاف المسيحيين، اثناء مطاردتهم الضارية للمسيحية فى ذلك الوقت.

ونحن سنلاحظ أن هناك تداخلاً عميقاً بين الشنتوية والبوذية وبين الشنتوية والكونفوشية، وكلها ديانات آسيوية. وبالرغم من أوجه الشبه التى يمكن أن تقام بين بعض أوجه البوذية والمسيحية، الا ان المسيحية بدت لليابانيين جزءاً لا ينفصل عن الحضارة الغربية. أى أنهم رأوها انسلاخاً عن الهوية القومية والحضارة الآسيوية. ولذلك قاوموها مقاومة عنيفة.

كانت المسيحية قد دخلت اليابان لأول مرة عام ١٥٤٩ فنظر اليها الامبراطور هايديوشي باعتبارها تهديداً مباشراً لوحدة اليابان، فاشترك الاقطاعيون من عصر توكوجاوا فى قمعها بوحشية، واستطاعوا القضاء عليها عام ١٦٣٨ بعد أقل من قرن. غير أن اليابان الحديثة فى عصر ميجى اعترفت بالسماحة الدينية عام ١٨٧٣ وعادت المسيحية الى

النور، ولكنها لم تصل الى قوة اندافاعها السابق، فلم يعد هناك اكثر من ثلاثة ارباع مليون يابانى يدينون بالمسيحية (الكاثوليكية والبرونستانية أساساً، والكنيسة الارثوذكسية هى اقلية الاقلية) أى بنسبة تقل عن واحد فى المائة من عدد السكان. ولكن عناية الكنيسة اليابانية بالتعليم والظروف الاجتماعية واسباغ الروح اليابانية على المسيحية، جعل من مبادئها وقيمها وتأثيرها قوة تفوق بكثير نسبتها العددية.

ولكن «الاديان» جميعها فى اليابان تتساوى فى كونها تعنى للاغلبية الساحقة من الشعب اليابانى مجموعة من العادات والتقاليد والقيم الاخلاقية اكثر منها عقائد دينية.

ومن الملاحظ أن التداخل بين هذه المعتقدات يصل حداً يصعب معه التمييز بين الأصول. فالمواطن اليابانى يتزوج مثلاً على الطريقة الشنتوية، وهو نفسه الذى يدفن موتاه على الطريقة البوذية، وهو الذى يسلك فى حياته اليومية والاجتماعية حسب اخلاقيات وافتراضات وتصورات الشنتوية والكونفوشية والبوذية والمسيحية دون ادنى تدخل بين إحداها أو جميعها وبين ادارة شؤون الدولة ومؤسسات المجتمع. إنها ضمير فردي وعقل جمعى، تتحكم تلقائياً ولا شعورياً فى السلوك والفعل، ولكنها ابعد ما تكون عن التقنين والتشريع والدستور، وتنظيم علاقات الدولة بالافراد أو الأحزاب، وتنظيم علاقات المواطنين ببعضهم البعض. انها قيم تبلغ من التعميم درجة الاخلاق الاجتماعية، بمعزل عن

أى تخصيص يميز بين المواطنين بسبب انتماءاتهم الدينية أو ينحاز الى فريق بسبب ولاءاتهم الفكرية.

واليابانيون المعاصرون لا يشعرون بأى تعارض بين تصوراتهم أو عاداتهم أو تقاليدهم، وبين علمانية الادارة القانونية أو السياسية للدولة والمجتمع. إن «آداب السلوك» التى يتميزون بها تساعد العقل على الاحتفاظ بالهدوء. و«الآداب الحميدة» هى القوة فى حالة اختزان للجهد. وهم قد ورثوا عن البوشيدو (روح الساموراى) مقولة أن الصدق قوة وأن الكذب ضعف. ولأن الانسان جزء من الطبيعة حسب مقولات الشنتو، فإن الموت يصبح جزءاً من تجليات الطبيعة. هكذا يكون الصبر والصمود والصمت فى مواجهة النتائج.

فى مدينتَى كيوتو ونارا عرفت معنى «التأمل» اليابانى، عرفت أن المواطن اليابانى قارئ جيد للطبيعة وللنفس لا للكتب والصحف.

أول ما جذب انتباهى طوال المسافة الى المدينة هذه المعابد الشامخة التى لا تقع فى وسط المدينة ولا تتزاحم على بعضها البعض، ولا صوت يعلو فوق صوت الصمت. هناك فى أطراف المدينة وسط غابات باذخة مليئة لحد التخمة بالاشجار السامقة والجداول الصغيرة والهضاب. وبالطبع ستدفع ثمن تذكره الدخول، وقد تشترى بعض النشرات المصورة التى تحكى تاريخ المعبد أو بعض التذكارات والهدايا. وما أن ترى المعبد أمامك حتى تكتشف سلماً طويلاً عريضاً بطيئ الايقاع مبنياً فى

الارجح على هضبة أو أنهم بنوا له هضبة. إنه طويل ولكنه ليس مرتفعاً أو عالياً، بل مستطيل فى هدوء. والدرجة عريضة جدا تتسع لاكثر من ثلاثين شخصا، ويشعر المرء انه يتمشى ولا يتسلق. ولا يشعر بضرورة درجات السّلم، فهذا الممشى البطئ الطويل يفضى فى النهاية الى «المعبد» مباشرة. ليست هناك قاعة، بل متحف صغير لا تدخله، تقف مباشرة أمامه، تنحنى قليلاً وتذهب، أو تمسك بيديك وتصمت قليلاً وتذهب، أو أنك تدق جرساً وتذهب. تماثيل بوذا وتعاليمه تتصدر المكان. تتأملها. قد تلحظ إحدهم أو احداهن تهمس أو تتمم أو تغمغم. قد تجد مشجبا عُلّقت عليه سبورة بيضاء خشبية تبرز منها أوراق صغيرة كتب عليها البعض أمنيات.

فكرت كثيراً فى هذه التفاصيل: ابتعاد المعبد الى أطراف المدينة، الغابة التى تحتضنه، طريقة صنع السلّم وتصميمه. وقلت فى نفسى أن اليابانيين سواء أكانوا من اتباع مذهب «زن» البوذى أو لم يكونوا، فهم جميعاً شغوفون بالتأمل. إن الظواهر السالفة الذكر ليست اكثر من «مناخ» للتأمل: البعد عن ضجة المدينة واللجوء الى هدوء الغابة. السلّم الذى ينطق بأن سرعة الوصول لا تؤدى الى شئ، وإنما بطء الوصول يمنح الانسان فرصة «التفكير السديد» الذى نادى به بوذا. حالة من حالات «ضبط النفس» التى قال بها. أما لحظة الوصول فهى مباشرة لا تتطلب سوى الاحترام بالانحناء أو ضم اليدين أو دق الجرس أو الخشوع. بوذا

الجسد قد مات، ولكنه لم يفن، بل هو حاضر فى هذا الكون على نحو ما من خلال «حكمة التنوير».

شاهدنى أستاذ يقود تلامذته الى المعبد، ولم يكن يعرف الانجليزية فراح يستغيث بأى من الحاضرين والسياح. كان يشير الىّ ويقول: إنه أجنبى. تقدم اليه السيد عبد الجواد وسأله باليابانية: ماذا تريد؟ اندهش الرجل من هذا الاجنبى الذى يتكلم لغة أهل البلاد، وسأله: ماذا جئتم لتشاهدوا؟ قلت له: المعابد. ابتسم وهو يسأل من جديد: هل تسمعون عن بوذا؟ قلت له: نعم. وعاد من جديد يسأل عن بلادنا وديانتنا. قلت له: كلانا من مصر، أنا مسيحى وهو مسلم. نادى على تلاميذته، وراح يطلب الينا أن نشرح لهم ماذا تكون مصر وما معنى ان نكون مسيحيين أو مسلمين. قلت له: هذه امور تحتاج الى وقت طويل. وتستطيع أن تحصل على معلومات ضافية عن مصر والعرب والمسيحية والاسلام من السفارات العربية والاسلامية. أجاب: ليست المشكلة تخصنى، بل أردت أن أقدمكما الى التلاميذ الصغار بصفتكما شخصين حقيقيين من لحم ودم، ولستما كتابين أو نشرتين. الفرق كبير جداً، انتما «حقيقة» أما الورق فخيال وأشباح. كان التلاميذ خلال الحوار قد تفرقوا، وراحوا يلعبون. والتقوا بطوابير اخرى من مدارس آخرى تقودها معلمات، يلتقطون الصور ويتساءلون عما يشاهدون. سألت إحدى التلميذات: هل أنت بوذية؟ قالت: لا. هل أنت كونفوشية؟ تساءلت: ماذا؟ هل أنت

شنتوية؟ أجابت: لم أتزوج بعد. هل إنت مسيحية؟ قالت: تقصد الجمعية؟ لست عضواً فيها. كان الجو ماطراً، فاستأذنت المعلمة: الى أى دين تنتمين؟ اندهشت جداً وكادت تمضي دون جواب، ولكنى استوقفتها: الاتنتمين الى أىّ دين؟ أجابت فى حياء شديد: معذره، لست أفهم ما تقصده تماماً. أنا لست عضواً فى النادى. وارتبكت. عن أى ناد تتكلم. قلت: ألست تقودين هؤلاء التلاميذ والتلميذات الى المعبد؟ قالت: نعم، إننا هنا ثلاث معلمات للتاريخ والتربية والفن، وكلّ منا تشرح ما يخصها هنا. قلت لها: ولكن إحدى التلميذات قالت انها ليست من «الجمعية»، وأنت تقولين انك لا تنتمين الى النادى، فماذا تقصدان؟ وانتقلت بسرعة من الانجليزية المبسطة التى كانت تتكلمها معى الى اليابانية. وكان السيد عبد الجواد يترجم لى: انها تقصد الكنيسة الانجليكانية الموجودة هنا، فى نارا.

كان التأمل فى الأخلاق والحاسة الجمالية، هو كل ما استطعت تبينه من رحلة التلاميذ الى المعبد. وقد لاحظت اثناء خروجى ان هناك راهباً بوذيا يجلس القرفصاء فوق منصة خشبية وقد تجمهر حوله التلاميذ وهو يقرأ. سألت ما الحكاية؟ قيل لى أنه يقرأ فى تعاليم بوذا، هذه وظيفته، ولكن البناء والاولاد تفرقوا مرة اخرى، وتركوا الراهب يقرأ وحده دقائق معدودة ثم اختفى. أما التلاميذ فقد راحوا يغسلون ايديهم بالماء «المقدس»، ويكتبون أسماءهم فى الأوراق «المقدسة»، ويرقصون ويغنون

أمام احد المعابد الصغيرة الذي كانت بداخله ثلاث سيدات، احداهن تقرع طبلة.

وفى الكنيسة الانجليكانية وجدت حشداً كبيراً من الاطفال، وقسيساً يابانيا. قلت له: إنني اعرف الكنيسة الانجليكانية هي الكنيسة الوطنية الانجليزية، وتاريخها معروف فى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية، فكيف وصلت الى اليابان. وأجاب الرجل: إن المسيحية فى اليابان تتكون من كل المذاهب فالكاثوليكية والبروتستانتية تتقاسمان المسيحيين اليابانيين، ولكن البروتستانية مذاهب عديدة، وهناك الاقلية الارثوذكسية. وكما تلاحظ فإن اليوم ليس هو الأحد، اليوم هو الخميس، ومع ذلك فنحن نَصَلي. الأجازات هنا فى نارا تختلف من منطقة الى أخرى حسب الاحتياجات والاتفاق حولها. ونحن فى هذه الكنيسة نهتم بالجيل الجديد أولاً واخيراً، لأن الاجيال الماضية تختلط فى ذهنها معانى الاديان اختلاطاً شديداً. وأستطيع ان اقول لك أن المسيحية اليابانية تختلف قليلاً أو كثيراً عن المسيحية الغربية. ربما كانت الطقوس والشعائر والعبادات واحدة، ولكن الايمان فى النفوس مشوّش تختلط فيه المسيحية بالمعتقدات الشعبية الموروثة. وهذه مشكلة، ولكننا يجب أن نتحلى بالصبر فلابد للمسيحية أن تكتسب حق المواطنة بالكثير من التفاعل مع التربة اليابانية. قلت له: ولكن الكنيسة الانجليكانية فى الاصل كنيسة وطنية انجليزية، فكيف تتخلى عن جنسيتها الاصلية الأ

اذا تخلت عن هويتها العقائدية؟ أجاب: إن جميع الكنائس عنا مستوردة، فبالرغم من أن البداية اقترنت بالفرنسيين ولكن التبشير الكاثوليكي اقترن عمليا بالبعثات الأسبانية والبرتغالية. أما الكنيسة الارثوذكسية ذات الاقلية العددية فقد جاءت الينا من روسيا. ثم نشط الاميركيون عبر ارسالياتهم. واذن فالمسيحية ذاتها، وليست كنائسها فقط، هي ديانة غير يابانية وتحتاج الى جهد كبير - ما تزال- لاكسابها شعبية يابانية. لذلك نحن نحتاج للاطفال وتربيتهم، ونؤسس المدارس والمستشفيات وحتى الجامعات لاكتساب هذه الشعبية. وبالطبع جاء هذا كله متاخراً، لأن اليابان باكملها تخلت عن الجانب العقائدي في أديانها الموروثة، فكم يكون الحال بالاديان الغريبة والحديثة نسبياً. ومع ذلك فنحن لا نيأس، بل نزيد من عنايتنا بالكنيسة.

وقد تجولت مع القسيس الياباني في ارجاء الكنيسة، واذا بي أمام منتدى اجتماعي كبير يضم لعب الاطفال ومطعماً وساحة رياضية. وسمعت القسيس يقول لي: هذه «جمعية» تابعة للكنيسة، أو أنها الجناح الاجتماعي لجمعية الكنيسة.

وحينئذ فقط فهمت ماذا كانت تعنيه التلميذة ومعلمتها حين قالت لي الأولى انها ليست عضواً في الجمعية، وقالت لي الثانية انها لا تنتمي الى النادي. كانت هناك الفتاة اليابانية التي تعزف على البيانو، وكان الاطفال يترنمون بالتراتيل والاناشيد الكنسية. وكان الأهل - فيما يبدو

- حاضرين سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين.

وفى طوكيو حضرت قداساً كاثوليكيا وآخر ارثوذكسيا فى اكبر كنيستين شهيرتين هناك. ولاحظت ذلك «التركيز الشديد» بتعمد الوصول البطئ عبر هندسة السلالم. والوصول مباشرة دون وسيط كهنوتى (بالرغم من الكهنوت التقليدى فى كلا الكنيستين)، ودون وسيط زمنى (فليس من يوم محدد للصلاة). وتبقى اطروحة الشرف فى أدب البوشيدو (مغامرات الساموراى فى الحكايات والاناشيد) والتى تحتفل بالصدق والولاء وتستنكر العار الذى يرادف الخطيئة بارتكاب جرائم الكذب أو الخروج على الجماعة .. تبقى هذه الاطروحة فى صميم التعاليم الكنسية محاولة من المسيحية لاكتساب الشرعية اليابانية، أو أنها لا تستطيع إلاّ ان تكون كذلك.

ولكن اليابانيين عموماً لا يحرصون على معرفة الهوية العقيدية لبعضهم البعض، فحين سألت: هل يصل المسيحيون اليابانيون الى مراكز مرموقة فى الحكومة أو أجهزة الدولة، اندهش كل من سمع هذا السؤال، وقالوا لى: إننا لا نعرف عقائد الآخرين، لامن اسمائهم ولامن عاداتهم وتقاليدهم ولامن السجلات الرسمية لدرجة اننا لم نعرف ان رئيس الوزراء الأسبق - سوزوكى - كان مسيحياً الاّ من تقارير الصحفيين الاميركيين الذين يدسون أنوفهم فى تفاصيل الحياة الخاصة للناس.

(٣)

في طريقي الى الكنيسة الكاثوليكية في طوكيو كنت افكر طويلاً فيما قرأته عن الاضطهاد العظيم الذي لقيه المسيحيون اليابانيون مرتين في التاريخ، أولاهما عند بداية انتشارها، والأخرى في التوكوجاوا. وعندما أقبل «التنوير الياباني» كما يسمون عهد الميجي والتحديث، تم الافراج عن أربعة آلاف سجين مسيحي. وهذا كله غير دماء الشهداء الغزيرة التي سفكت. لماذا حدث ذلك؟ وتذكرت المغرب العربي الذي لا يعرف فرقاً بين العروبة والاسلام أو بين المواطنة والدين، لأنه كان يحارب استعماراً «مسيحياً». ولكن التاريخ لا يسجل لأهل المغرب العربي انهم قتلوا وسجنوا أهل الديانات الاخرى. صحيح أنه لم يبق من اصحاب هذه الديانات سوى الأقلية، ولكن هذه قصة اخرى.

لقد قبل اليابانيون الكونفوشية والبوذية، كما قبل المصريون أو

السوريون أو التونسيون الاسلام .. بمعنى أن الحضارة الصينية بالنسبة لليابانيين تشبه الحضارة الاسلامية بالنسبة لغير سكان شبه الجزيرة العربية. انها الحضارة الدينية الوافدة حقاً من بلد آحر، ولكن اللغة والتاريخ التالى للاسلام وكذلك الجغرافيا السياسية للمنطقة، أخذت تكونّ «أمة» عربية واحدة شارك الاسلام فى بنائها بالنصيب الأوفر. ليست اليابان أمة صينية، ولكنها جزء من الحضارة الصينية. وبالتالى أصبحت المسيحية من عوامل التغريب، وهو الامر الذى لم يحدث فى المشرق العربى لأن المسيحية ولدت ومازالت حيّة على أرض هذا المشرق.

لم تكن المسألة اذن بالنسبة للياباني معركة عقائدية مع ديانة أجنبية، ولكنها فى الاساس العميق معركة حضارية، فالمسيحية القادمة من أسبانيا والبرتغال وفرنسا انما هى قادمة من «الغرب». والغرب له علامتان تبدوان متناقضتين: العلامة الأولى هى التحرش بآسيا عسكرياً واقتصادياً. والعلامة الثانية هى التقدم التكنولوجى. وهم - الآسيويون - يستطيعون مقاومة التحرش العسكرى والاقتصادى، ويستطيعون الاستفادة من التكنولوجيا. أما حكاية الدين هذه فهى «الغزو الحضارى» للهوية القومية. لم يكن الامر واضحاً عقائدياً، فليست هناك مناظرات حول المسيحية فى الفكر اليابانى الوسيط أو الحديث. بل العكس، هناك ترجمات عن الاسلام وكتابات عن الرسول الكريم أثار بعضها المعارك الفكرية. ولكن الموقف من المسيحية لم يكن قضية فكرية

تستحق النقاش، وإنما كان رفضاً لها من حيث المبدأ، لمجرد أنها «ديانة الغرب».

لم يكن الأمر دفاعاً عن ديانات يابانية، وإنما عن اليابان ذاتها. وعندما صدرت قرارات السماحة العقائدية في سبعينات القرن الماضي لم يدخل المسيحية نفر كثير، ولم يكن لها قوة الدفع التي عرفتها قبل أربعة قرون. تحولت في الواقع الاجتماعي للشعب الياباني الى مدارس ومستشفيات وجامعات. وهو الأمر الذي وقع لكافة «الأديان» الاخرى. ولكن بقيت المسيحية في اليابان عنواناً للكثير من التناقضات، فهي ركيزة ثقافية كبرى لعنايتها بالتعليم. ومن هنا تقترب من تعاليم الكونفوشية. ومن ناحية أخرى فإن المسيحية بأديرتها وكهنوتها و «نور المسيح» تقترب من البوذية. وهي عنوان التغريب و«المبادئ الحضارية» كما يسمونها احياناً. وهي المبادئ التي تستحوذ على العدد الاكبر من المثقفين المنتمين تقليدياً الى «أديان» اخرى.

عندما دخلت كنيسة القديس اجناتيوس الرومانية الكاثوليكية برفقة تاكاهاشي وجدتني في صحن كنيسة كاثوليكية قد توجد في باريس أو في روما أو في لبنان. القداس والكهنوت وأسلوب الصلاة وبعض الكلمات اللاتينية. ولكن القداس في أغلبه كان باللغة اليابانية. وكنت أعرف أن مرافقتي تاكاهاشي يومي بوذية أو من أسرة بوذية أو أنها في الاقل ليست مسيحية. ولكني رأيتها تدخل معي من أبواب

الكنيسة وقد تلبّستها على نحو ما هيئة «روحية» في توقير واحترام بالغين، حتى أنها همست لى بعد أن وقفنا مع الواقفين - بسبب ازدحام الكنيسة بالمصلّين - أن التصوير ممنوع هنا. سألتها: ممنوع أم حرام؟ ولكن الانجليزية لم تسعفها بغير الاشارة بالاصبع: لا.

لم أستمع الى يومى، ورحت التقط الصور، لم تنظر الىّ ولم تحتج. كانت قد أحنت رأسها واستغرقت فى تفكير عميق. ولكنى لم أرغب فى البقاء حتى نهاية القداس. وهمست فى أذن يومى هيّا بنا. ولمحت الدهشة والاستياء المهذب يرتسمان ببطء على محيّاها. كنت قبل يومين أصررت على زيارة الكنيسة وضرورة اشتمال البرنامج عليها حتى لو أدى الامر الى استبعاد زيارات أخرى. لذلك كانت الدهشة من قرارى بالذهاب بعد أقل من ربع ساعة. ولكنى فوجئت بالاستياء المهذب. وهو يعود أولاً الى الادب اليابانى التقليدى، ويعود ثانياً الى واجبات الضيافة. ولكن التهذيب الشديد لم ينف ملمح الاستياء، فقد خرجت يومى من الصف وتقدمتنى الى الباب دون أن تنبس. وقبل أن نركب السيارة سألتها: هل تسببت لك فى أى انزعاج؟ لقد تصورت ان اختصار الوقت المخصص لزيارة الكنيسة هو لمصلحة البرنامج المكثف. قالت بصوت خافت، ومازالت الهيئة الروحية تُكسب سحنتها معنى خاصاً: إننى على وشك أن أصبح مسيحية.

وجدتنى فجأة فى موقف مثير، هو الأول من نوعه فى حياتى.

أعرف كثيرين تحولوا عن أديانهم لأسباب اجتماعية أو اقتصادية أو حتى سياسية. وسمعت عن الذين غيروا أديانهم لأسباب فكرية أو روحية، ولكنى لم أر أحدهم. هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها إنسانا يقول لى أنه «على وشك اعتناق المسيحية». لم أفهم فى البدء معنى «على وشك». ولم أفهم ماذا تعنى تماماً كلمة «اعتناق» بالنسبة لشابة يابانية مثقفة لم يبق بينها وبين القرن الحادى والعشرين سوى أقل من عشر سنوات.

ولكنى تذكرت مناقشات الليلة السابقة مع مجموعة من المثقفين اليابانيين الشيوخ والكهول. ومن كلامهم أدركت أن صورة المسيحية فى الذهن اليابانى عموماً صورة مشوشة تختلط بالكثير من المعانى البوذية، وخاصة «التأمل» فى مذهب زن. وفهمت أيضاً أن هناك جمعية تدعو نفسها «اللاكنيسة»، وهى جمعية مسيحية أيضاً. وأن بعض الحركات الشبابية المحتجة أو المتمردة قد تتخذ من المسيحية راية للرفض لاعقيدة دينية. وهى تشبه بعض الحركات المنبثقة عن مذاهب بوذية أو عن الشنتوية، وبعضها يجوب العالم برأس حليقة إلاّ من شعيرات أو لحية مشذبة ولباس تقليدى. يجوبون بالطبل والترانيم أنحاء العالم. إنها تعبيرات مختلفة عن «أزمات تخصهم». وحين تساءلت عما اذا كانوا يعبرون عن حاجة حقيقة للدين، أجابوا بل إن هذا الاحتياج هو الذى يعبر عن الازمة.

وكان من السهل أن الأحظ أن المسيحية تتميز بين الاديان اليابانية بأنها تؤمن بالوحي والرسل واليوم الاخر. وهو تصوّر مغاير كلياً للتصورات اليابانية المتصلة جوهريا بالهوية القومية. وهي تتميز أيضاً بـ «الصلاة » لقوة غيبية مفارقة للطبيعة، الأمر الذى يختلف تماماً عن الشكر لبوذا أو احترامه. وكانت هذه الملاحظات تفسّر لى لماذا استقبلت المسيحية باعتبارها «تهدد وحدة اليابان». وفسّرت لى أيضاً لماذا يلجأ اليها بعض الشباب الآن، وكأنهم يهددون هذه الوحدة التى لا تلبى مطالبهم.

وقد سألت مجموعة الاصدقاء، وكان من بينهم المؤرخ والاديب والصحفى ورجل الاعمال والمهندس والكيميائى: ماذا تعنون بكلمة «الأزمة» التى يعبر عنها الشباب بالعودة الى الشعائر الفولكلورية أو باعتناق المسيحية المختلطة؟ لم يجبنى أحدهم بما يمسك الرمق.

ولم توح لى تاكاهاشى يومى بأية رغبة فى مناقشة هذا الموضوع. أوحت لي، على النقيض من ذلك، أنه شأن خاص. فى طريق العودة الى الفندق أشارت الى مبنى ضخم ينتحى جانب الطريق، وقالت فى كلمات مقتضبة: هذه هى الجامعة المسيحية. وسكتت. حاولتُ أن تكون هذه العبارة مدخلاً لاستئناف الحوار، ولكن الحواجز بالأسلاك الشائكة كانت قد أقيمت. ولم أعد قط الى فتح هذا «الملف» الذى يوشك على استضافة السطر الأول. كل ما استطيع أن اقوله ان يومى كانت فى سلوكها

وأخلاقياتها إمرأة يابانية حديثة، تعى جيداً انها يابانية بكل ما يشتمل عليه هذا المصطلح من إيحاءات ثقافية وخصوصية وطنية، وبكل ما يتبادر الى الذهن الغربى من مفهوم للحداثة.

وحين فاجأت يومى برغبتى فى زيارة الكنيسة الارثوذكسية، ابتسمت وهى تقول: سأذهب معك لأنها ستكون أول زيارة لى الى كنسية القديس نيقولاى كاساتكين الذى أدخل الاثوذكسية الى اليابان. حينئذ فقط جرؤت على أن أسالها: ستكونين مسيحية كاثوليكية أم ارثوذكسية؟ أجابت بلا تردد : كاثوليكية.

طراز معمارى رفيع المستوى، هذا هو الانطباع الأول الذى يصادفك على أبواب الكنيسة التى خطط لها البروفيسور شيشيربوف Prof. Shicherpov فى المعهد الهندسى الملكى فى روسيا. وقد نفذ التصميم المهندس الانجليزى كوندر Conder وتم انجاز البناء فى سبع سنوات بين ١٨٨٤ و ١٨٩١. هذا هو المبنى الحديث ذو التصميم الروسى. وكان المبنى القديم من ضمن الكنوز التى دمرت فى زالزال كانتو Kanto الكبير. وقد شرعوا فى البناء الحديث فور وقوع المأساة، على اسس بيزنطية.

مؤسس الكاتدرائية - كما يسمون هذه الكنيسة - هو كما أسلفت القديس نيكولاى كاساتين (١٨٣٦ - ١٩١٢). وقد كان شابا فى الخامسة والعشرين حين عبر سيبريا خلال عام كامل ليعمل قسيسا

للقنصلية الروسية فى هاكوديت Hakodate. وأمضى عشر سنوات يدرس الشعب اليابانى والثقافة اليابانية حتى أصبح على دراية متعمقة بالتاريخ اليابانى والأديان اليابانية. وخلال ثلاث سنوات كان نيقولاى قد عمَّد ثلاثين ألفا من اليابانيين معمودية ارثوذكسية. وقد وصل عدد الكنائس الارثوذكسية الى ١٥٠ كنيسة فى جميع أرجاء اليابان. وكان قد ترجم بنفسه كتب الصلاة الى اليابانية، وهى التى تستخدم الى الآن. ولكن الكنيسة الارثوذكسية اليابانية استقلت عن الكنيسة الروسية الأم. ويرأسها الآن تيودسيوس ناجاشيما Theodosius Nagashima اسقف طوكيو ورئيس أساقفة اليابان حيث تنتشر الكنيسة الارثوذكسية فى كوب واساكا وكيوتو وسينادى وهاكوديت وسا بارو وغيرها.

ولقد تعمدت التفصيل عن هذه الكنيسة لأنها تمثل أقلية الأقلية، فالمسيحية اليابانية تتقاسمها الكاثوليكية والبروتستانتية. ورغم هذا التعدد تظل المسيحية روحاً غريباً فى اليابان. لم يعد ثمة تمع يحول دون الايمان بها. ولكنها ذابت فى المنظومة الاخلاقية اليابانية التى لا تستمد فعاليتها من أطروحة الثواب والعقاب فى الآخرة. واختفت «وراءيتها» فى التوحّد اليابانى مع الطبيعة. ولم يكن الفداء مطلوباً فى ظل الشعور بالتجدد الذى كان يسمى - قبل التحديث - بالتناسخ. ربما كانت المسيحية تعوضّ اليابانيين حرمانهم مما يدعوه بعضهم بالازمة دون الامساك بتلابيبها. أى أنها ربما منحت «العزاء» أو «الامل». وربما

فتحت لدى البعض منهم نافذة «الحلم». إن المسافة بين المعمودية والقيامة هي الحلم المسيحي الذى قد يفتح امام اليابانى - للمرة الأولى-أبواب الميتافيزيقا. وهى، هذه المرة، ميتافيزيقا التكنولوجيا.

إن الفكر اليابانى القديم أو الوسيط لم يحتك بالمنطق اليونانى كما فعل الاسلام أو بالتراجيديا اليونانية كما فعلت المسيحية. ولم يعرف هذا الفكر ملكاً كاختاتون فى مصر القديمة ولا بطلاً كجلجامش فى العراق القديم. لم يعرف «السرّ» أو «اللغز» أو «الخطيئة الاصلية». كان خياله دائماً فى حدود هذا العالم، وداخل أسوار هذا الكون، لذلك كان من الطبيعى أن يعرف طريقه الي الانسجام الروحى مع الحداثة التكنولوجية. وكان من الصعب ان يكتشف طريقاً الى «المحرِّك الأول» الأرسطى أو «وحدة الوجود» الاسبينوزية.

***

بين الرابع عشر والخامس عشر من سبتمبر أمضيت الفترة الرئيسية المخصصة لزيارة أعظم معابد اليابان القديمة التى بقيت أو التى جُدِّدت، فبعضها دُمِّر وأعيد بناؤه.

ومثلاً، فقد شاهدت فى مدينة نارا تمثال دالبيوتسو، وهو أكبر تمثال برونزى لبوذا فى اليابان كلها. وقد أنجز الفنان نحته منذ حوالى الف ومائتى عام (فى القرن الثامن). ولكن الحريق فى إحدى المرات دمّره. والمعبد الذى يضم هذا التمثال يعدّه المتخصصون من أهم التصميمات

الخشبية فى العالم.

وفى الطريق يعترضك منتزة الغزال الأليف الذى يجوب المنطقة فى حرية تامة. وأنت تشترى له «بسكويتا» خاصاً أى طعاماً مصنوعاً على هيئة البسكويت، ولكنه بالطبع من مواد اخرى.

وهاهو كاسوجا KA - SU - GA الذى شيدَ عام ٧٦٨ وكانت نارا عاصمة اليابان قبل كيوتو، وتلفت الانتباه هذه الفوانيس الحجرية والزهور الملونة فى الطريق الى القبر.

وتترامى الأبنية الخشبية المحيطة من كل جانب على مدى النظر، وكأنها مجمع متكامل.

مشهد ساحر يضع أمامك سؤال الحياة والموت، وبينهما التأمل البوذى فى المصير المزدوج. ويبدو طريق الفوانيس والزهور كأنه «النور» الذى يرشد التأمل داخلك الى ينابيع النفس والكون. وبالرغم من أننى لا أعرف عن البوذية اكثر مما هو مكتوب فى بعض المؤلفات أو المترجمات الانجليزية، إلاّ أن رؤية تمثال بوذا الضخم وطريق الزهور الجميلة يشعرك وسط الهدوء الشامل بأنك امام ديانة السؤال، أو منظومة من الأفكار التى تلقى بك فى خضّم الحيرة والرغبة الكامنة فى معرفة الجواب. وفى كيوتو تكتشف هذا المعنى للسؤال اكثر، فالتعاليم الأبعد عن الميتافيزيقا تتجسد معماريا فى الطابق الخشبى الواحد. الخشب وليس الحجر هو مادة البناء، بالرغم من أننا فى بلاد الزلازل والأعاصير.

وعندما يرتفع البناء الى أعلى. فإنه لا يرتفع كعدة طوابق وانما كعمود أو كبرج او كالشهاب. إنه السؤال الأبدي الذي يتكون من الهشاشة والأحادية الناقصة. هشاشة الخشب، وأحادية الطابق غير المكتمل بما قد يظهر لنا النصف الآخر.

في كيوتو التي تميز لهجة سكانها نعومة خاصة بالرغم من أنك لا تعرف اليابانية سوف يصادفك «القبر» مرة أخرى، وقد بني عام ٨٩٥م أي منذ حوالي الف عام. وتصادفك ايضاً الحدائق الباهرة الجمال وخاصة أشجار الكرز الذي يحتفل اليابانيون بأزهاره احتفالاً شديداً. وهاهو معبد سان جو – سان جن – دو San - Ju - San - Gen - Do الشهير بساحاته الثلاث والثلاثين. ويبدأ تاريخه بعام ١١٢٢ ولكنه احترق فاعيد بناؤه عام ١٢٥١. وأهم ما يلفت النظر في هذا المعبد هو تماثيله الذهبية التي تبلغ الألف قطعة والتي تستحضر في خيالنا بقوة ذكريات ألف لية وليلة.

وهذا أيضاً المبنى الذهبي الذي بني أول مرة عام ١٣٩٤ ودُمِّر عام ١٩٥٠ وأعيد بناؤه بعد خمس سنوات. وتصل حدائق المعبد الى أكثر من ستين نوعاً، أشبه ما تكون بالغابة اليانعة الخضرة المتنوعة الأشكال والاحجام. ولكن اكثر الحدائق مدعاة للدهشة في كيوتو حديقة الصخرة ريو – آن – چي Ryo - An - Ji التي تقع في الأطراف الغربية من المدينة، وقد صممت عام ١٤٧٣ اعتماداً على ما احتوته طبيعة المكان

من صخر وطحالب وحجر ابيض.

وقد غامرت - لأننى أخاف البحر - بالسير نصف ساعة خلال المنحدرات المائية فى قارب خشبى مسطح.

واشهد ان الاسئلة لم تخفت لحظة واحدة طيلة هذه الرحلة «الدينية» وسط معابد ومقابر وزهور ناروواكيوتو. لا تصدر الاسئلة عن فضول انسانى مشروع، خاصة من زائر يرى اليابان للمرة الأولى. وانما تصدر الاسئلة من داخل الأشياء. من مادتها الخشبية أو الذهبية أو النباتية أو الحيوانية، ومن اسلوبها فى التعبير عن ذاتها بالنحت أو الألوان أو المؤانسة. وكان الإطار العام لكل هذه البانوراما هو الابتعاد الجغرافى عن وسط المدينة المزدحم والتحصن بين أشجار الغابة الصغيرة أو الحديقة الكبيرة. هذا الاطار هو الهدوء ودفع المرء الى «التأمل». ليس تأمل «الجمال» الذى أمامك أو «الآثار» التى تحيطك. بل تأمل أبعد الدواخل فى داخلك، وأبعد الخارج من خارجك. أى نفسك والكون. الحياة، حياتك. والموت، موتك. أنت فى العالم. أنت فى الأسرة. فى المدرسة، فى المصنع، ولكنك أنت وحدك وهذا الكون ليس من كون غيره. وحده، هو العالم. كلاكما وحيد. وليس هذا الانطباع الذى شحننى به المشهد جواباً، فالوحدة سؤال.

ولأول مرة فى هذا المكان الذى لا يضفون عليه أية «قداسة» أعنى أن النظام الأبوى واحترام الأجداد ورمزية الامبراطور، كلها فى أعماق

اليابانى، أطواق لمجاه من الغرق فى الوحدة. وأفهم أن العزلة اليابانية القديمة حتى مشارف العصر الحديث هى انعكاس حقيقى لعزلة الفرد نفسه. ليس صحيحاً اذن أن اليابانى لا يعرف الفردية. إنه لا يعرف فردية اللبيبرالية الغربية، ولكنه يعرف، من غير سارتر، الفردية الوجودية وهى الفردية التى ترادف الوحدة. أنا فرد فأنا وحيد. هذا هو اليابانى من داخل «الروح». وهنا ينبلج السر الحقيقى فى حياته. ولانه سرّ مشترك بين اليابانيين جميعاً فهو سر متفق عليه. أى أنه سر وليس سراً فى الوقت نفسه. أو أنه سر على غير اليابانيين فقط. أو أنه السر المعروف غير المعلن. اختر ما شئت من تعريفات لهذا الشئ الذى تنطوى عليه الشخصية اليابانية من فرادة داخلية عميقة وتشبث خارجى تلقائى بالجماعية. الفرد هو الروح والجماعة هى الجسد. الفرد هو النفس اليابانية، والنظام الابوى هو اليابان.الفرد يسبح فى الوجود، والجماعة (الدولة - المجتمع) طوق النجاة..

لا ينكشف لك هذا السرّ إلاّ بين هذه المعابد والمقابر والغابات المائية بزهورها الملونة وأشجارها الراسخة البعيدة عن المدينة.

هذه الفردية - الوحدة العميقة فى هذا الكون - الوحيد العميق، هو سرّ اسرار «الألم» فى الشخصية اليابانية. ليست هناك خطيئة، وبالتالى فليس هناك فداء .. ولكن شق الطريق الى النفس هو الألم اليابانى. طريق الجسد الاجتماعى من نظام أبوى الى انضباط تراتبى،

وطريق الروح من التوحّد بالطبيعة الى التناسخ. طريق طويل مرهق لابد من اجتيازه كأنه «المطهر» فى الكوميديا الالهية. ولكن الأصول الانجيلية والقرآنية فى «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى وفى كوميديا دانتى اليجيرى، تبتعد كثيراً بالطريق اليابانى عن المطهر الدينى عند المسيحيين والمسلمين. بل إنه يختلف ايضاً عن الترفانا الهندية الت يعرفها اليابانى عن البوذية. نعم، إنه طريق الخلاص، ولكنه طريق السعادة في هذه الدينا. إنه اذن ليس الزهد فى هذه الدنيا، ولكنه «التأمل» فى القضاء والقدر غير الميتافيزيقيين والسعادة والتعاسة على هذه الأرض.

اليابانى اكثر تركيبا من البساطة التى نراه عليها. ولعل هذا التركيب نفسه هو الدين الذى يعتنقه. فردية داخلية عميقة فى حالة كمون، وكونية خارجية بلا علّة مفارقة اوسند. هذا الجدار المزدوج بين الداخل والخارج وبين الطبيعة وما وراءها، يفرض عزلة صارمة وقاسية على الشخصية اليابانية يتحصن ضد مضاعفاتها بالعائلة وبالغزو العسكرى أو بالغزو التجارى للعالم. ليس هذا كله فى حقيقته النفسية شبه الدينية «خروجا الى العالم» بل تحصينا للنفس من الانهيار والسقوط فى البحر المظلم.

الشخصية اليابانية لا تعرف الالحاد بمعناه الاوروبى القادم مع عصر التنوير .ولا تعرف الالحاد بمعناه الوجودى القادم الى أوروبا أيضاً بعد

الحرب العالمية الثانية. لم تعرف اليابان تنويراً يقتضى الفتوحات العلمية والكشوف والاختراعات التى تصطدم نتائجها بالمؤسسة الدينية كما حدث لأوروبا مع الكاثوليكية. ولم تعرف اليابان وجودية تقتضى الشعور بالمسئولية فى الفراغ الذى أسسه نيتشه وملأه هيدجروسارتر من موقعين متناقضين التقيا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية. ولكن اليابان تعرف منذ القديم انها متوحدة مع الطبيعة فى كون بلا بداية ولا نهاية هو هذا الكون، دون أى عالم آخر. إنه تديّن ما، وليس الحاداً. هذه الكلمة ليس لها مرادف يابانى. لذلك ليس هناك فى واقع الأمر بُعد ميتافيزيقى فى الشخصية اليابانية. هناك فقط هذه الفردية المحاصرة ذاتيا بالنظام الأبوى والانضباط التراتبى. هذا هو الماضى الحىّ، أو الجذور الحاضرة. وهى الجذور التى تؤصلها المعابد والمقابر والحدائق ودرجات السلالم والبناء الخشبى وتماثيل بوذا والارتفاعات والابتعاد. وهى التى تفسر حالة «التأمل» التى تشبه التأمل المسيحى ولكنها تختلف عنه، لأن المسيحية - حسب الشاعر ملتون - بحث دائب عن الفردوس المفقود. والمسيح قال صراحة «مملكتى ليست من هذا العالم». ولكن اليابانى يبحث عن الفردوس المفقود داخله، لأن هذا العالم ليس له «طابق ثان»، وإنما هو كالمعبد طابق واحد من الخشب، وأن استطال كالبرج على هيئة عمود. فى الحالين تصوغ النفس اليّابانية الوحيدة حتى الموت الذى تذرو رماده الرياح بعد الاحتراق، والعالم الوحيد بلا نهاية، علامة سؤال. سؤال دائرى

يبدأ وينتهى بالعلامة ذاتها. هكذا امتنع الحلم عن اليابانيين، لأن الفردية السحيقة الكامنة تجمدت فى تابوت النظام الابوى والانضباط التراتبى. لم تتحرك فلم تتمزق أو تتعدد أو تحلم. وهذا هو السبب الخفى فى التقدم التكنولوجى والمادى المتعاظم، والتخلف النسبى، الاجتماعى والثقافى. بل إنه السبب المضمر فى ثنايا الادب اليابانى والمسرح اليابانى، حيث تتعذر الأحلام وتبرز السكونية وتتجسم الأحادية. ويبقى القضاء والقدر أو السعادة والتعاسة أو الحياة والموت موضوعات شبه كهنوتية للمسرح. وتبقى «الفرجة» اشبه بالتأمل. ويكاد الكابوكى والنوُّ أن يجعلاً من المسرح معبداً للتدين. نعم، فى الثقافة اليابانية مكان كبير للحزن المكبوت، وليس للغضب. هناك حيز واسع للدموع فى القلب، وليس فى العيون. هناك احترام بالغ للحيرة وليس للتراجيديا.

وما عدا ذلك فالكوميديا تملأ الفضاء اليابانى بفرقعه الضحكات التى تضع النقطة تحت علامة الاستفهام. ولكنها الضحكات التى لا تجيب ابداً.

فهـرست

مؤلفات د. غالي شكري
التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

١- سلامة موسى وأزمة الضمير العربي ١٩٦٢

٢- أزمة الجنس في القصة العربية ١٩٦٢

٣- المنتمي: دراسة في أدب نجيب محفوظ ١٩٦٤

٤- ثورة المعتزل: دراسة في أدب توفيق الحكيم ١٩٦٦

٥- ماذا أضافوا لضمير العصر ١٩٦٧

٦- أمريكا والحرب الفكرية ١٩٦٨

٧- شعرنا الحديث إلى أين؟ ١٩٦٨

٨- أدب المقاومة ١٩٧٠

٩- مذكرات ثقافة تحتضر ١٩٧٠

١٠- معنى المأساة في الرواية العربية ١٩٧١

١١- العنقاء الجديدة: صراع الأجيال فى الأدب المعاصر ١٩٧١

١٢- ذكريات الجيل الضائع ١٩٧٢

١٣- ثقافتنا بين نعم ولا ١٩٧٢

١٤- التراث والثورة ١٩٧٣

١٥- عروبة مصر وامتحان التاريخ ١٩٧٤

١٦- ماذا يبقى من طه حسين؟ ١٩٧٤

١٧- من الأرشيف السرى للثقافة المصرية ١٩٧٥

١٨- عرس الدم فى لبنان ١٩٧٦

١٩- غادة السمان بلا أجنحة ١٩٧٧

٢٠- يوم طويل فى حياة قصيرة ١٩٧٨

٢١- النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ١٩٧٨

٢٢- الثورة المضادة فى مصر ١٩٧٨

٢٣- الماركسية والأدب ١٩٧٩

٢٤- اعترافات الزمن الخائب ١٩٧٩

٢٥- أنهم يرقصون ليلة رأس السنة ١٩٨٠

٢٦- محاورات اليوم السابع ١٩٨٠

٢٧- البجعة تودع الصياد ١٩٨١

٢٨- دفاع عن النقد ١٩٨١

٢٩- محمد مندور: الناقد والمنهج ١٩٨١

٣٠- مواويل الليلة الكبيرة ١٩٨٥

٣١- ديكتاتورية التخلف العربى ١٩٨٦

٣٢- الثقافة العربية فى تونس ١٩٨٦

٣٣- بلاغ إلى الرأى العام ١٩٨٨

٣٤- نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل ١٩٨٨

٣٥- مرآة المنفى ١٩٨٩

٣٦- برج بابل ١٩٨٩

٣٧- أقواس الهزيمة ١٩٨٩

٣٨- خطاب إلى القارئ العادى ١٩٩٠

٣٩- أقنعة الإرهاب ١٩٩٠

٤٠- الأقباط فى وطن متغير ١٩٩٠

٤١- يوسف أدريس، فرفور خارج السور ١٩٩١

٤٢- المثقفون والسلطة ١٩٩١

٤٣- بداية التاريخ ١٩٩٣

٤٤- الخروج على النص ١٩٩٣

٤٥- الحلم اليابانى ١٩٩٤

رقم الأيداع

٩٤ / ٢٢٦٤

الترقيم الدولى ISBN

977/ 25365/ 14/ 7



قام الكاتب الكبير الدكتور غالى شكرى برحلة الى اليابان ، تعرَّف فيها عن كثب الى مختلف نواحى التجربة اليابانية ، سواء ما ينتمى منها الى الماضى او ما يتصل بالحاضر . وقد قابل خلال هذه الرحلة ارفع المستويات القيادية وزار المواطنين العاديين فى بيوتهم ومواقع عملهم . وشاهد فنونهم ومعابدهم وحفلات زفافهم ولمس عن قرب ادق خصوصيات تقاليدهم . وخرج من الرحلة بهذا الكتاب الذى يجيب عن تساؤلات يحلم اصحابها بما يسمونه المعجزة اليابانية . وسوف تكتشف بعد القراءة ان للمؤلف رأيا مختلفا .

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية